ميلان كونديرا

@ketab_n
Follow Me

21.3.2015

الهويّة



ترجمة: محمد التهامي العماري

1

فندق في مدينة صغيرة على شاطئ بحر النورماندي كانا قد عثرا عليه صدفة في دليل سياحيّ. وصلت شانطال مساء الجمعة لتمضي فيه الليلة وحدها، بدون جان مارك الذي كان سيلتحق بها ظهيرة اليوم اللاحق. تركت حقيبتها الصغيرة في الغرفة وخرجت، لتعود إلى مطعم الفندق بعد نزهة صغيرة في شوارع لا تعرفها. كانت صالة المطعم ما تزال فارغة عند السابعة والنصف. جلست إلى طاولة منتظرة أن يلاحظها أحدهم. في الجانب الآخر، بالقرب من باب المطبخ، ثمة نادلتان مستغرقتان في النقاش. وبما أنها تكره رفع صوتها، قامت

واجتازت الصالة، ثم توقفت قربهما، لكنهما كانتا منهمكتين في الحديث: «أقول لك، مضى على الأمر عشر سنوات. أعرفهم. أمر مرعب. وما من أثر. لا أثر. تحدثوا عن ذلك في التلفزيون». ردت المرأة الأخرى: «ما الذي يكون قد جرى له؟ - لا أحد يمكنه التكهن بذلك، وهذا هو المرعب في الأمر؛ أهي جريمة قتل؟ لقد بحثوا في جميع الأنحاء. أهو اختطاف؟ من قام به؟ ولماذا؟ لم يكن شخصا غنيّا ولا مهمّا. لقد أظهروهم على التلفزيون. أطفاله وزوجته. يا لها من مصيبة. هل تَعيْنَ ذلك؟»

انتبهت إلى شانطال: «هل تعرفين البرنامج التلفزيوني الذي يتحدث عن المفقودين؟ يدعى «**مختفون عن الأنظار**».

أعرفه، قالت شانطال.

ربما شاهدت ما حدث لعائلة بورديو، إنها من هنا.

لقد شاهدته، أمر مرعب»، قالت شانطال وهي لا تدري كيف تُحوّل النقاش من هذه المأساة إلى سؤال مبتذل عن الطعام.

«تريدين تناول العشاء» قالت النادلة الأخرى أخيرا.

أجل.

- سأنادي رئيس الخدم، اجلسي من فضلك.

أضافت زميلتها: «أَتَعين المسألة، يختفي شخص تحبينه ولا تعرفين أبدا ما حصل له! إنه أمر يدفع إلى الجنون!»

عادت شانطال إلى طاولتها. حضر رئيس الخدم بعد خمس دقائق، فطلبت وجبة باردة بسيطة للغاية. فهي لا تحب تناول الطعام بمفردها. آه، كم تكره هذا الأمر: أن تأكل وحدها!

قطّعت الجومبون في صحنها من دون أن تنجح في إيقاف الأفكار التي حملتها النادلتان إليها: في هذا العالم حيث كل خطوة من خطواتنا مُراقَبة ومُسَجلّة، حيث تراقبنا الكاميرات في المحلات الكبرى، حيث يحتك الناس بعضهم ببعض باستمرار، حيث لا يستطيع الإنسان حتى ممارسة الجنس من دون أن يسأله، في اليوم اللاحق، الباحثون والمستطلعون («أين تمارس الجنس؟»، «كم مرّة في الأسبوع»؟، هل تضع واقيا أم لا»؟). كيف يفلت المرء من المراقبة من دون أن يخلف أثرا؟ أجل، هي تعرف جيدا هذا البرنامج بعنوانه الذي يثير خوفها: «مختفون عن الأنظار». إنه البرنامج الوحيد الذي يهدّئها بصِدقه وحزنه، كما لو أن تدخلا صادرا عن جهة مجهولة

أجبر التلفزيون على التخلي عن كل نَزَق، يدعو فيه مقدّم البرنامج المشاهدين بنبرة وقورة إلى تقديم شهادة قد تساعد على العثور على الشخص المختفي. وعند نهاية الحلقة تُعرض كلّ صور المختفين الذين أشير إليهم في الحلقات السابقة الواحدة تلو الأخرى؛ بعضهم فُقِدَ منذ أحد عشر عاما.

تخيّلت أنها ستفقد يوما جان مارك بهذه الطريقة. ستختفي عنها أخباره، وستضطر إلى تخيل كل شيء عنه. لن تقوى حتى على الانتحار، لأن الانتحار سيعني الخيانة، رفض الانتظار، عدم القدرة على الصبر. سيُحكم عليها أن تعيش حتى آخر أيامها في رعب لا ينقطع.

2

صعدت إلى غرفتها. غفت بصعوبة واستيقظت في منتصف الليل بعد حُلم طويل. كان الحلم مأهولا بأناس من ماضيها بوجه

خاص: والدتها (المتوفاة منذ زمن طويل)، ولاسيما زوجها السابق (لم تره منذ سنوات، لكنه لم يكن يشبهه في الواقع، كما لو أن مخرج الحلم أخطأ في انتقاء الممثلين). كان مع شقيقته المتسلّطة الحازمة، وزوجته الجديدة (لم يسبق لها أن رأتها؛ وبرغم ذلك، لم تشك أبدا في هويتها في الحلم)؛ وفي النهاية عرض عليها القيام بأمور جنسية مبهمة. وقد قَبّلت زوجته الجديدة شانطال بقوة على فمها محاولة أن تُزلِقَ لسانها بين شفتيها. إن الألسن وهي تلحس بعضها تسبب لها التقزز دائما. والواقع أن هذه القبلة هي التي أيقظتها من النوم.

الاضطراب الذي ولّده لها الحلم كان مفرطاً إلى درجة جعلها تجهد ذهنها لمعرفة السبب. ظنّت بأن ما كدّرها إلى هذه الدَّرَجة هو قيام الحلم بإلغاء الحاضر. فهي شديدة التعلق بحاضرها الذي لن يجعلها شيء في العالم تُقايضه لا بالماضي ولا بالمستقبل. لهذا لا تُحب الأحلام لأنها تفرض مساواة غير مقبولة بين مراحل الحياة الواحدة، وتقيم تزامنا يساوي بين كلّ ما عاشه الإنسان في حياته. إنها تفقد الحاضر مكانته عبر إنكار موقعه المميّز، مثلما هو الأمر تماما في حلمها هذه الليلة، إذ اختفى منه جانب كامل من حياتها:

جان مارك، شقتهما المشتركة، كلّ السنين التي عاشاها معا. فقد حل الماضي مكان ذلك كله، الأشخاص الذين قطعت صلتها بهم منذ فترة طويلة والذين حاولوا أسرها في شبكة الإغواء الجنسي التافهة. كانت تشعر بشفتيّ امرأة رطبتين على فمها (لم تكن المرأة قبيحة، إذ بدا المخرج صارما وشديد التطلّب هذه المرة في اختيار الممثلة). كان الأمر بالنسبة إليها كريهاً إلى درجة أنها توجهت في عزّ الليل إلى قاعة الحمّام لتمضي فترة طويلة تغتسل وتغرغر.

3

كان «ف» صديقا قديما لجان مارك، يعرفان بعضهما منذ أيام الثانوية، يتشاركان الأفكار نفسها، ويتفقان في كلّ شيء. وقد ظلا على اتصال حتى جاء يوم، قبل سنوات، لم يعد فيه جان مارك يحبّه، وقطع صلته به فجأة ونهائيا. ولمّا علم باشتداد المرض عليه، وبأنه يرقد في إحدى مستشفيات بروكسل، لم تساوره أيّ رغبة في عيادته؛ لكن شانطال أصرّت عليه بالذهاب لزيارته.

كانت رؤية الصديق القديم شاقة: فقد احتفظ له في ذاكرته بالصورة التي كان عليها أيام الثانوية: صبيّ ضعيف البنيّة، حسن الهندام دوما، يتمتع برهافة طبيعية يشعر جان مارك أمامها كأنه خرتيت (وحيدة القرن). أما السمات الدقيقة الأنثوية التي كانت تجعل من «ف»، فيما مضى، يبدو أصغر من سنّه، فقد جعلته يبدو اليوم أكبر سنّا: ظهر وجهه صغيرا بشكل غريب، منكمشا، متجعّدا، مثل رأس أميرة مصريّة محنطة مرّ على موتها أربعة آلاف سنة. نظر جان مارك إلى ذراعيه: كانت أحداهما ثابتة غرزت في شريانها إبرة لمَصل الذراع أما الثانية فكانت تقوم بحركات معبّرة تدعّم كلامه. كان دائما حين ينظر إليه وهو يُعبّر بالحركات، يخيّل إليه أن ذراعيّ «ف» أصغر من جسمه، كانتا صغيرتين تماما، أشبه بذراعَيْ دمية. تعاظم عنده هذا الشعور في ذلك اليوم، إذ إن حركاته الطفولية لم تكن تتناسب أبدا مع جديّة كلامه: كان «ف» يحكي له عن غيبوبته التي استمرت عدة أيام قبل أن يعيده الأطباء إلى الحياة: «لعلّك تعرف شهادات الناس الذين عادوا إلى الحياة بعد وفاتهم. يتحدث تولستوي عن ذلك في إحدى قصصه. يتحدث عن نفق يوجد في طرفه نور، عن جمال

الآخرة الفتّان. لكن، أقسم لك، ليس هناك أي نور. والأفظع من ذلك أنك تظل واعيا، تدرك كلّ شيء، تسمع كلّ شيء، الأطباء فقط هم الذين لا يعيرون الأمر أهميّة ويحكون أي شيء أمامك، حتى ما لا ينبغي أن تسمعه من قبيل أنك هلكت، وأن دماغك خُرّب».

سكت للحظة ثم أضاف: «لا أريد القول إن روحي كانت صافية تماما. كنت أعي كلّ ما يحيط بي، لكن كان كل شيء محرّفا كما لو في حلم. ومن وقت لآخر يصير الحلم كابوسا. غير أن الكابوس في الحياة ينتهي بسرعة، تشرع في الصراخ فتستيقظ، أما أنا، فلم أقوَ على الصراخ. وهذا ما كان رهيبا: عدم القدرة على الصراخ، ألا تستطيع الصراخ أثناء الكابوس».

سكت من جديد للحظة، ثم أضاف: «لم أخش الموت يوما. أما الآن فالأمر مختلف. فأنا لا أستطيع التخلص من فكرة أننا نبقى أحياء بعد الموت. وأن الموت يعني أن نعيش كابوسا لا نهاية له. لندع هذا ولنتحدث عن أمر آخر.»

قبل وصوله إلى المستشفى، كان جان مارك متيقنا بأن لا أحد منهما سيتمكن من تجنّب ذكرى قطيعتهما، وبأنه سيضطر لأن يقول

لـ «ف» بعض كلمات المُصالحة الصادقة. غير أن خوفه لم يكن في محله: ذلك أن فكرة الموت جعلت كلّ المواضيع الأخرى تبدو تافهة. لقد كان بودّ «ف» أن ينتقل فعلا إلى موضوع آخر، لكنه استمرّ في الحديث عن جسده المعذّب. أصابت هذه الحكاية جان مارك بالكآبة، لكنها لم توقظ فيه أي عطف.

4

أهو فعلا على هذا القدر من الفتور وعدم الإحساس؟ منذ سنين خلت، علم يوما بأن «ف» خانه. آه، كم كانت الكلمة شديدة الرومانسية، مبالغ فيها بالتأكيد، ومع ذلك شوّشه الأمر: ففي أحد الاجتماعات هاجم جميع الحاضرين جان مارك أثناء غيابه، وهو ما كلّفه منصبه لاحقا. كان «ف» حاضرا في ذلك الاجتماع، ولم يتفوه بكلمة واحدة دفاعا عنه. ولم تتحرك ذراعاه الصغيرتان المحبتان للإيماء لصالح صديقه. وحتى لا يخطئ، تحقّق جان مارك بدِقّة من أن «ف» لزم

الصمت فعلا. ولما تيقن من الأمر، شعر لدقائق بأنه جُرِح تماما؛ فقرر ألا يراه مجددا، وشعر في الحال براحة بهيجة يتعذّر شرحها.

كاد «ف» يفرغ من عرض مآسيه حين، وبعد لحظة صمت، أشرق وجهه الشبيه بوجه أميرة صغيرة محنطة: «أتذكُر أحاديثنا في الثانوية؟

«ليس كثيرا»، قال جان مارك.

«كنت دائما أصغي إليك بصفتك معلمي في أحاديثك عن الفتيات».

حاول جان مارك أن يتذكر، لكنه لم يعثر في ذاكرته على أيّ أثر لأحاديث الماضي:

«ماذا عساي أقول آنذاك -أنا الصبي ذو الستة عشر ربيعا- عن الفتيات؟

أراني واقفا أمامك، تابع «ف»، وأنت تقول شيئا عن الفتيات. هل تذكر، كان يصدمني دائما أن يكون الجسد الجميل آلة إفرازات. قلت لك بأني لم أكن أطيق رؤية فتاة تتمخط. تتراءى لي وأنت تتوقف، تتفرّسني وتقول لي بنبرة خبيرة، صادقة وواثقة: تتمخط؟ يكفيني أنا

رؤية عينها ترمش، رؤية حركة الجفن على القُرنيّة، لأشعر بقرف لا أكاد أستطيع مغالبته. أتذكر ذلك؟»

- كلا، قال جان مارك.

- كيف أمكنك أن تنسى؟ حركة الجفن. فكرة غريبة حقا!»

ولكن جان مارك كان صادقا. فهو لا يذكر هذا الأمر. ثم إنه لم يحاول حتى أن يفتش في ذاكرته. كان يشغل باله أمر آخر: ها هو المبرِّر الحقيقي الوحيد لوجود الصداقة: توفير مرآة للغير تمكّنه من تأمّل صورته الماضية فيها، تلك الصورة التي بدون ثرثرة الذكريات الأبدية بين الأصدقاء، تعرضت للمحو منذ زمن بعيد.

«الجفن. ألا تذكر ذلك حقا؟

كلا»، قال جان مارك، ثم همس لنفسه: ألا تريد أن تفهم إذن بأنني لا أعبأ بالمرآة التي تقدم لي؟

أصاب التعب «ف» فسكت كما لو أن ذكرى الجفن قد أرهقته.

«عليك أن تنام»، قال جان مارك ذلك وهو ينهض.

وفيما هو خارج من المستشفى، شعر برغبة لا تقاوم في أن يكون مع شانطال. لو لم يكن منهكا فعلا، لذهب إليها في الحال، كان

ينوي، قبل أن يصل إلى بروكسل تناول فطور غني بالفندق صبيحة اليوم التالي، ثم يستقل طريقه بطمأنينة، وبدون استعجال. لكن بعد لقائه بـ «ف» ضبط ساعة سفره على الخامسة صباحا.

5

خرجت شانطال من الفندق متعبة بعد قضاء ليلة سيئة، وصادفت في طريقها إلى شاطئ البحر سياح العطلات الأسبوعية. كانت مجموعاتهم كلها تنتظم على نفس المنوال: يدفع الرجل مركبة الطفل والزوجة تسير بجانبه. يعكس وجه الرجل السذاجة والتيقظ والبشاشة، ويبدو عليه أنه قليل الارتباك، على استعداد دائم لينحني على الطفل قصد تمخيطه أو تهدئة روعه. أما وجه المرأة فكان سئيما، متحفظا، متغطرسا، بلِ شريرا في بعض الأحيان (وبطريقة يتعذر شرحها). رأت شانطال هذا النمط يتكرر بتنويعات متعددة: رجل إلى جانب امرأة يدفع عربة ويحمل في الآن نفسه طفلا على

ظهره داخل كيس خاص؛ ورجل إلى جانب امرأة يدفع عربة، وهو يحمل في الوقت نفسه طفلا على كتفيه وآخر في كيس على بطنه؛ ورجل إلى جانب امرأة، بدون عربة، يمسك بيده ولدا ويحمل ثلاثة آخرين على ظهره وبطنه وكتفيه. وأخيرا، امرأة من دون رجل تدفع عربة بهمّة لا يعرفها الرجال، إلى درجة أن شانطال التي كانت تسير على الرصيف عينه اضطرت إلى القفز جانبا في آخر لحظة.

قالت شانطال لنفسها: صار الرجال باباوات. ليسوا آباء بل باباوات، وهذا معناه: أنهم آباء من دون سلطة الأب. تخيّلت نفسها تغازل أبا يدفع عربة طفل، ويحمل، فضلا عن ذلك، طفلين آخرين على ظهره وبطنه، فتغتنم لحظة توقف الزوجة أمام واجهة محلّ، لتهمس للزوج بموعد. ما عساه يفعل؟ هل بإمكان الرجل وقد تحول إلى شجرة أطفال أن يلتفت إلى امرأة غريبة؟ ألن يشرع الأطفال المعلقّون على ظهره وبطنه في الصراخ ضد هذه الحركة المزعجة التي قام بها حاملهم؟ بدت لها هذه الفكرة طريفة، وروّقت مزاجها، وقالت لنفسها: أعيش في عالم لن يلتفت فيه الرجال إليّ أبدا.

ثم ألفت نفسها على حاجز الأمواج بين بعض المتنزهين

الصباحيّين: إنه الجَزْر. امتدّ أمامها السهل الرملي مسافة كيلومتر. كانت قد مضت فترة طويلة لم تزر فيها شاطئ النورماندي، ولا تعرف أيضا الأنشطة الجديدة التي كانت تُمارس فيه: الطائرات الورقيّة والعربات الشراعيّة. الطائرة الورقية عبارة عن قماش ملون مشدّود على هيكل شديد الصلابة، تُرسل في الهواء، وتوجّه بواسطة حبلين رفيعين، يُمسَك كلّ منهما بيد، بحيث تعلو وتنزل، تدور وتُرسل ضجة رهيبة تشبه ضجة ذبابة عملاقة؛ ومن وقت لآخر، يسقط أنفها أولا على الرمل مثل طائرة تتحطم. تفاجأت إذ لاحظت أن أصحابها ليسوا من الأطفال أو المراهقين، بل كلهم من الراشدين تقريبا. ما من نساء أبدا، فقط الرجال. وكلهم في الواقع باباوات! باباوات من دون أطفال، باباوات نجحوا في الهروب من زوجاتهم! لم يهرعوا إلى عشيقاتهم، بل هرعوا إلى الشاطئ كي يلعبوا!

مرّة أخرى راودتها فكرة إغواء ماكر: أن تقترب من الخلف من الرجل الذي يمسك بالحبلين ويتابع طيران لعبته الصاخب وهو ينظر إلى الأعلى؛ فتدعوه همسا بأشد الكلمات فحشا إلى ممارسة الجنس. ماذا تكون ردةّ فعله؟ لا يساورها أدنى شك في أنه سيهمس

لها، من دون أن ينظر إليها، قائلا: ابتعدي عني، أنا مشغول!

آه كلا، لن يلتفت إليها الرجال مطلقا!

عادت إلى الفندق، ولمحت سيارة جان مارك في الموقف. أخبرتها عاملة الاستقبال بأنه وصل منذ نصف ساعة على الأقل، وناولتها خطابا:

«وصلتُ قبل الموعد. سأمضي للبحث عنك. ج.م.»

تنهدت شانطال: «ذهب للبحث عني، لكن أين؟

قال السيّد بأنك ستكونين.حتما في الشاطئ. »

6

في طريقه إلى شاطئ البحر، مرّ جان مارك أمام محطة حافلات. لم يكن هناك سوى فتاة ترتدي «جينزاً وبلوزة خفيفة». كانت تحرك ردفيها بلا همّة، ولكن بشكل ملحوظ، كما لو كانت ترقص. ولما اقترب منها، رأى ثغرها الفاغر: تثاءبت بشراهة طويلا. كان هذا الثقب الكبير المفتوح يتأرجح بهدوء مع الجسد المتراقص بشكل

آلي. قال جان مارك لنفسه: ترقص وتشعر بالسأم. وصل إلى حاجز الموج فرأى في الأسفل عند الشاطئ رجالا يرسلون طائراتهم الورقية ورؤوسهم إلى الخلف. يقومون بذلك بشغف، فتذكر نظريته القديمة: هناك ثلاثة أنواع من السأم: السأم السلبي، مثل الفتاة التي ترقص وتتثاءب؛ والسأم الفعّال: وهو سأم هواة الطائرات الورقية؛ ثم السأم الثائر: وهو سأم الشباب الذين يحرقون السيارات ويحطمون واجهات المحلات التجارية.

في مكان أبعد على الشاطئ، تجمع أطفال بين الثانية عشرة والرابعة عشرة، يرتدون خوذات ملونة، تمتدّ تحتها أجسادهم الصغيرة، حول سيّارات غريبة: ثُبِّتت عجلة في الأمام واثنتان في الخلف فوق شبكة من قضبان معدنية، وفي الوسط ثمة تجويف طويل وخفيض، يمكن أن ينزلق فيه جسد متمدّدا. أما في الأعلى، فثمة صارٍ وشراع. لِمَ يرتدي الأطفال الخوذات؟ بالتأكيد لأن هذه الرياضة خطرة. ومع ذلك، قال جان مارك في نفسه: تشكل هذه المركبات التي يقودها الأطفال خطرا على المتنزهين بالدرجة الأولى، فلِماذا لا يُقترح عليهم هم أيضا وضع خوذات؟ لأن أولئك الذين ينصرفون عن

ضروب التسلية المنظمة هم الهاربون من النضال المشترك ضد السأم، ولا يستحقون من ثم لا الانتباه ولا الخوذات.

نزل السلّم الذي يقود إلى الشاطئ ونظر باهتمام نحو الحافة الخارجة من الماء؛ واجتهد في تمييز شانطال من بين خيالات المتسكعين البعيدة، فتمكن من التعرف عليها أخيرا. كانت قد توقفت لتوها لتتأمل الأمواج والأشرعة والغيوم.

مرّ قرب أطفال كان المدرب يحاول إجلاسهم في العربات التي بدأت تتحرك دائريا ببطء. وحولهم كانت عربات أخرى تتحرك بسرعة كبيرة. وحده شراع يحرّكه حبل هو الذي يوجه الهيكل الوجهة الصحيحة، ويسمح عند الانعطاف بتفادي المتنزهين. لكن، هل يستطيع حقا هاو تنقصه المهارة أن يتحكم في الشراع؟ والعربة، أهي سليمة من العيوب فعلا حتى تتجاوب مع رغبة السائق؟

كان جان مارك يشاهد العربات، ولما لاحظ أن إحداها تتجه بسرعة كنيزك صوب شانطال، تغضّن جبينه. كان يتمدد فيها عجوز كما لو أنه رائد فضاء داخل صاروخ. في هذه الوضعية الأفقية لا يستطيع رؤية ما هو موجود أمامه! هل شانطال حذرة ومتنبّهة كي

تتفاداه؟ أرغى وأزبد على طبيعتها اللامبالية، وحثّ خطاه.

استدارت وعادت على أعقابها، لكنها لم تلمح جان مارك بالتأكيد، إذ ظلت مشيتها بطيئة، مشية امرأة غارقة في أفكارها تسير من دون انتباه لما حولها. ودّ لو يصرخ بها أن تخرج من شرودها وتنتبه لهذه السيارات الخرقاء التي تجوب الشاطئ. تخيّل جسدها وقد سحقته فجأة إحدى العربات، فتخرّ على الرمل مضرّجة بدمائها، بينما تمضي العربة مبتعدة على الشاطئ، ورأى نفسه يركض صوبها. أثّرت هذه الصورة فيه كثيرا إلى درجة أنه أخذ فعلاً يصيح عاليا باسم شانطال؛ لكن قوة الريح وشساعة الشاطئ جعلت صوته لا يكاد يُسمع. هكذا انغمس في هذا النوع من المسرح العاطفي وراح يصرخ خوفاً عليها وقد اغرورقت عيناه بالدموع. عاش لثوان رعب موتها، فبدت ملامح وجهه منقبضة كما لو أنه يكاد يبكي.

وما لبث أن اندهش هو نفسه من هذه الأزمة الهستيرية الغريبة. ذلك أنه رآها على بعد منه تتنزه بلامبالاة. بدت مطمئنة، هادئة، ساحرة، آسرة جدا، فابتسم من مسرحية الحزن هذه التي مثّلها لنفسه؛ ابتسم من دون أن يلوم نفسه، لأن موت شانطال يلازمه منذ أن وقع

في حبها. وشرع في الركض نحوها وهو يومئ لها بيده، لكنها توقفت مجددا، ومرة أخرى استدارت نحو البحر لتشاهد القوارب الشراعية البعيدة دون أن تنتبه إلى الرجل الذي كان يلوح بيده.

أخيرا لما التفتت نحوه، بدت كما لو كانت تراه؛ رفع ذراعه ملوّحاً وقد غمرته البهجة؛ لكنها لم تكترث به، إذ توقفت ومضت تتابع ببصرها خط البحر الطويل الذي يلامس الشاطئ. الآن وقد صار يراها من الجانب، لاحظ أن ما ظنّه كتلة شعرها لم يكن سوى منديل يحيط برأسها. وكلّما اقترب منها (بخطى غدت فجأة بطيئة) أخذت هذه المرأة التي ظنها شانطال تصير عجوزا بشعة، وبشكل ساخر امرأة أخرى.

7

سرعان ما تعبت شانطال من تأمل شاطئ البحر من على كاسر الموج، فقررت انتظار جان مارك في غرفة الفندق. لكن، ما هذا

النعاس الذي تشعر به! ولكي لا تفسد متعة اللقاء، ارتأت أن تشرب قهوة بسرعة. غيرت حينذاك وجهتها صوب جناح كبير من الإسمنت المسلح والزجاج، يضم مطعما ومقهى وقاعة ألعاب وبضعة متاجر.

دلفت إلى المقهى، فصدمتها موسيقى صاخبة. تقدمت متضايقة بين صفين من الطاولات. داخل الصالة الكبيرة الفارغة كان هناك رجلان يحدقان فيها: أحدهما شاب يرتدي لباس نادل مقهى أسود، ويستند إلى مقدمة الكونتوار؛ والآخر، أكبر منه سنا، قوي البنية، يرتدي قميصا قصيرا، ويقف في عمق الصالة.

قالت للرجل المفتول العضلات، وهي تهم بالجلوس: «هل يمكن إسكات الموسيقى؟»

تقدم نحوها بضع خطوات: «عفوا، لم أفهم جيدا.»

نظرت شانطال إلى عضلات ذراعيه الموشومتين: امرأة عارية ذات نهدين كبيرين وثعبان يلفّ جسدها.

رددت (مخّففة من مطلبها): «الموسيقى، هل يمكن أن تخفت صوتها قليلا؟»

أجاب الرجل: «الموسيقى؟ ألم تعجبك؟» ورأت شانطال

الشاب في تلك اللحظة يمّر وراء المشرب ليزيد من صوت موسيقى الروك.

كان الرجل ذو الوشم قريبا جدا منها. بدت لها ابتسامته بشعة. فقالت باستسلام: «كلا، ليس لديّ أي شيء ضد موسيقاكم!»

قال صاحب الوشم: «كنت متأكدا بأنها ستعجبك. ماذا تريدين؟»

«لا شيء»، قالت شانطال، « أريد أن أستطلع فقط. الجو لطيف عندكم».

«لِمَ لا تبقين إذن؟» قال الشاب ذو اللباس الأسود من وراء ظهرها بصوت هادئ يشي بالخبث، وقد غيّر مكانه مرة أخرى، ووقف بين صفيّ الطاولات في الممرّ الوحيد المؤدي إلى باب الخروج. أثار تملق صوته ضربا من الرعب في شانطال. شعرت بنفسها كما لو علقت في فخ سينغلق عليها بعد لحظات. أحست بالحاجة إلى التصرف بسرعة. كان عليها لكي تغادر أن تمر بالضبط من حيث يقطع الشاب عليها الطريق. تقدمت كما لو قررت أن تذهب إلى حتفها مباشرة. ولما رأت أمامها ابتسامة الشاب اللطيفة، أحست بخفقان

قلبها. ولم يتنحّ جانبا لكي يتركها تمر إلا في اللحظة الأخيرة.

8

لطالما اختلطت عليه هيئة المحبوبة بهيئة نساء أخريات. كم مرة عاش ذلك! إنه يدهشه دائما بنفس الاندهاش: هل معنى ذلك أن الفرق بينها وبين الأخريات ضئيل إلى هذا الحد؟ كيف له ألا يتعرّف طيف الكائن الأحب إليه، الكائن الذي لا مثيل له عنده؟

رآها أخيرا لما فتح باب الغرفة. إنها هي هذه المرّة بلا أدنى شك. غير أنها لا تشبه نفسها أيضا، بوجه عجوز، ونظرة كريهة بشكل غريب؛ كما لو أن المرأة التي لوح لها على الشاطئ، حلّت من الآن وإلى الأبد مكان من يحب. كما لو أنّه يستحق العقاب على أنه لم يعرفها.

- ماذا هناك؟ ماذا جرى؟

- لا شيء. لا شيء، قالت.

- كيف لا شيء؟ لقد تغيرت بالكامل؟
- نمت نوماً سيئاً. لم أنم تقريبا. وأمضيت صبيحة سيئة.
- صبيحة سيئة؟ لماذا؟
- لا لشيء. حقا لا لشيء.
- أخبريني.

- حقا لا شيء؟.

وألحّ عليها فقالت: «لم يعد الرجال يلتفتون إليّ».

حدّق إليها وهو لا يستطيع فهم ما تقصد. هي حزينة لأن الرجال لم يعودوا يلتفتون إليها؟ وأراد أن يقول لها: وأنا؟ أنا الذي بحثت عنك مسافة كيلومترات على الشاطئ، أنا من صرخ باسمك باكيا ومستعدا لأن يركض خلفك على مدار الكرة الأرضية؟

لم يقل هذا. بل ردد ببطء وبصوت خافت الكلمات التي تفوهت بها لتوها: «لم يعد الرجال يلتفتون إليك، أهذا هو سبب تعاستك حقا؟»

احمرّت. احمرّت كما لم يرها تحمرّ منذ زمن بعيد. وبدا هذا الاحمرار وكأنه يفضح رغبات مكبوتة. رغبات عنيفة لم تستطع

شانطال مقاومتها، فرددت: «أجل، لم يعد الرجال يلتفتون إليّ».

9

لما ظهر جان مارك على عتبة الغرفة، ساورتها رغبة كبيرة في أن تبدو مرحة؛ رغبت في تقبيله، لكنها لم تستطع. فمنذ مرورها بالمقهى وهي متوترة، منقبضة وغارقة في مزاجها العكر إلى درجة خشيت معها أن يبدو تودّدها له مصطنعا ومزيفا.

سألها جان مارك: «ماذا حصل؟» فقالت له بأن نومها كان سيئا، وأنها متعبة. لكنها لم تنجح في إقناعه، فواصل أسئلته. وبما أنها لم تكن تعرف كيف تتخلص من هذا التحقيق العاطفي، ارتأت أن تقول له شيئا مرحا؛ فتذكرت عندئذ نزهتها الصباحية، وكيف تحوّل الرجال إلى أشجار أطفال، وعثرت في ذهنها على جملة بقيت عالقة مثل شيء منسي. «لم يعد الرجال يلتفتون إلي». التجأت إلى هذه الجملة لتتفادى أيّ مناقشة جديّة؛ اجتهدت لتقولها بأخف الطرق،

لكن ولدهشتها، كان صوتها مريرا وكئيبا. شعرت بهذه الكآبة ملتصقة بوجهها، وأدركت فورا بأنه سيسيء فهمها.

رأته ينظر إليها برزانة طويلا، وأحست بهذه النظرة تؤجج النار في جسمها، وتنتشر بسرعة في أحشائها، وتصعد إلى صدرها، فتكوي وجنتيها. وسمعت جان مارك يردد بعدها: «لم يعد الرجال يلتفتون إليك. أهذا هو ما يُحزنك حقا؟»

شعرت بأنها تحترق مثل شعلة، وبأن جسدها ينضح عرقا؛ وأدركت بأن هذا الاحمرار يضفي على جملتها أهمية قصوى. لا بد أن يعتقد أنها بهذه الكلمات (آه كم هي تافهة!) لقد فضحت نفسها، وكشفت له عن ميولها السرّية التي جعلتها تحمرّ الآن من الخجل. إنه سوء فهم، لكنها لا تستطيع أن تشرحه له، لأنها تعرف همجية النار هذه منذ مدة ليست بالقصيرة؛ وهي ترفض دائما أن تسميها باسمها الحقيقي؛ إلا أنها هذه المرة لا تشك أبدا في دلالتها، ولهذا السبب بالذات، لا تريد ولا تستطيع أن تتحدث عنها.

دامت موجة الحرارة التي ألمت بها طويلا، وكشفت عن نفسها، في منتهى السادية، أمام جان مارك؛ ولم تعد تدري ما تفعل لكي

تستر نفسها وتحتجب، وتداري النظرة التي تتفحصها. ولما بلغ بها الاضطراب مبلغه، كررت الجملة نفسها آملة تدارك ما فاتها في المرّة الأولى والنجاح في التلفظ بها بخفّة مثل نكتة أو محاكاة ساخرة: «أجل، لم يعد الرجال يلتفتون إليّ». لكن جهودها ذهبت سدى، إذ بدت الجملة أشدّ كآبة من السابق.

وشعّ في عيني جان مارك فجأة نور تعرفه، أشبه بفانوس الخلاص: «وأنا؟ كيف تفكرين بأولئك الذين لا يلتفتون إليك، بينما أركض أنا خلفك بلا توقف حيثما كنت؟»

شعرت بالنجاة، لأن صوت جان مارك كان صوت الحب، الحب الذي نسيت وجوده في لحظات القلق هذه. صوت الحب الذي يدغدغها ويريحها، لكنها لم تستعد له بعد؛ كما لو كان هذا الصوت آتيا من بعيد، من بعيد جدا. وستحتاج إلى أن تسمعه لبرهة حتى تستطيع تصديقه.

لهذا تصلبت لما أراد أن يضمّها بين ذراعيّه. خشيت أن يشدها إليه، خافت أن يبوح جسدها الرطب بالسر. بدت اللحظة قصيرة جدا ولم تمهلها لكي تسيطر على نفسها. لذلك، وقبل أن تستطيع التحكم

بحركتها، صدته عنها بخجل، لكن بحزم.

10

هل حدث فعلا هذا اللقاء الضائع الذي جعلهما عاجزين عن تقبيل بعضهما؟ أما زالت شانطال تذكر لحظات سوء الفهم هذه؟ أما زالت تذكر الجملة التي أربكت جان مارك؟ أبدا. نسيت الحادثة مثلما نسيت آلاف الأحداث الأخرى. بعد ذلك بساعتين كانا يتناولان الطعام في مطعم الفندق ويتحدثان ببهجة عن الموت. عن الموت؟ كان رئيسها قد طلب منها أن تفكر في حملة إعلانية لمؤسسة «لوسيان دوفال» لدفن الموتى. قالت له ضاحكة: «لا ينبغي أن تضحك.

- وهم، هل يضحكون؟

- مَن؟

- زملاؤك. الفكرة في حد ذاتها مضحكة، الدعاية للموت! مديرك، هذا التروتسكاوي العتيق! تقولين دائما إنه ذكي!

- إنه ذكي. منطقي مثل مبضع. فهو يعرف ماركس والتحليل

النفسي والشعر الحديث. يروقه أن يقول إن أدب العشرينيات، في ألمانيا أو لست أدري أين، كان يضم تيّارا شعريا هو تيّار قصيدة الحياة اليومية. والإعلان في نظره يحقق اليوم هذا البرنامج الشعري. فهو يحوّل الأشياء البسيطة في الحياة إلى شعر. وبفضله شرعت تفاصيل الحياة اليومية بالغناء.

- ما وجه الذكاء في هذه التفاهات!

- نبرة الاستفزاز الساخرة التي يتحدث بها.

- هل كان يضحك أم لا حين طلب منك القيام بالدعاية للموت؟

- كانت على وجهه ابتسامة تشير إلى تحفظه، وقد كان الأمر أنيقا. فكلما كنت قويا زادت حاجتك لأن تكون أنيقا. لكن ابتسامته المتحفظة لا علاقة لها بضحكتك. هو شديد الحساسية لهذا الفارق الصغير.

- كيف يتحمل ضحكتك إذن؟

- ماذا تعتقد يا جان مارك؟ أنني لا أضحك. لا تنس أن لديّ وجهين. لقد تعلمت كيف استخلص من ذلك بعض المتعة، لكن

ليس من السهل امتلاك وجهين. فالأمر يتطلب مجهودا، يتطلب انضباطا! عليك أن تفهم أنني أتوخى، طوعا أو كرها، إتقان كلّ ما أقوم به. ليس ذلك من أجل الحفاظ على وظيفتي فقط. فمن الصعب جدا أن تقوم بعملك بإتقان وأنت تكرهه.

فقال جان مارك: «آه، تستطيعين ذلك، أنت قادرة على ذلك، إنك رائعة.

- نعم، يمكن أن يكون لديّ وجهان، لكن لا أستطيع أن أحملهما معا في الوقت عينه. معك، أحمل الوجه الساخر. وعندما أكون في المكتب، أحمل الوجه الجاد. أتلقى ملفات الناس الذين يبحثون عن عمل عندنا. ينبغي إما أن أنصح بتوظيفهم وإما أن أعطي رأيا سلبيا بهم. فمنهم من يكتبون رسائلهم بلغة حديثة جدا، حافلة بكلّ الكليشيهات والمصطلحات المهنية، وبكلّ التفاؤل اللازم. لست بحاجة لأن أراهم أو أتحدث إليهم كي أكرههم. لكنني أعرف بأنهم هم الذين سيشتغلون بهمة وحماس. وهناك بالمقابل من كانوا سيكرسون أنفسهم -في زمن آخر بالتأكيد- للفلسفة وتاريخ الفن وتدريس اللغة الفرنسية، لكنهم اليوم يبحثون عن عمل عندنا بعد

أن أعياهم البحث عن عمل أفضل، أو بدافع اليأس. أنا أدرك بأنهم يكرهون في قرارة أنفسهم المنصب الذي يسعون إليه، ومن ثمة فهم إذن إخوتي. وعليّ أن أحسم.

- كيف تقررين؟

- أحيانا أوصي بمن يبدو لي لطيفا، وأحيانا أخرى بمن سيعمل جيدا. أتصرف كنصف خائنة نحو شركتي، وكنصف خائنة نحو نفسي. فأنا خائنة مزدوجة. وحالة الخيانة المزدوجة هذه، لا أعتبرها فشلا، بل نجاحا. لأنني أتساءل كم من الوقت سأظل قادرة على الاحتفاظ بالوجهين؟ إنه أمر شاق. سيأتي يوم لن يكون عندي فيه سوى وجه واحد، أسوأهما طبعا. الوجه الجاد، المذعن. هل ستستمر في حبي؟

فقال جان مارك: «لن تفقدي وجهيك أبدا».

ابتسمت وهي ترفع كأس النبيذ وقالت: «لنتمنّ ذلك».

قرعا قدحيهما وشربا، ثم قال جان مارك: «ومع ذلك، أكاد أغبطك على قيامك بالدعاية للموت. فمنذ نعومة أظافري وأنا مفتتن بقصائد الموت من دون معرفة سبب ذلك. فقد حفظت الكثير منها عن ظهر

قلب. أستطيع تلاوة بعضها عليك، هل ترغبين في ذلك؟ يمكنك توظيفها. على سبيل المثال هذان البيتان لبودلير، تعرفينهما بالتأكيد:

«أيها الموت، أيها القبطان العجوز، حان الوقت، لنرفع المرساة تسئمنا هذه البلاد. أيها الموت؟ لنبحر!»

- أعرفها، أعرفها، قاطعته شانطال، إنها جميلة لكنها لا تناسبنا.

- كيف؟ فصديقك التروتسكاوي العجوز يحب الشعر! أيّ عزاء أفضل لمحتضر من أن يقول لنفسه: تسئمنا هذه البلاد؟ أتخيّل هذه الكلمات وهي مضاءة بالنيون فوق أبواب المقابر. بالنسبة لإعلانك، يكفي أن تحوّري البيتين قليلا: تسئمك هذه البلاد. لوسيان دوفال، القبطان العجوز، سيضمن لكم الإبحار.

- لكن مهمتي ليست هي نيل رضا المحتضرين. فليسوا هم من سيطلب خدمات لوسيان دوفال؛ أما الأحياء الذين يدفنون أمواتهم فيريدون التمتع بالحياة لا الاحتفاء بالموت. تذكر هذا جيدا: ديانتنا هي الاحتفاء بالحياة. فلفظة «حياة» هي سلطانة الكلمات. الكلمة الملكة المُحاطة بكلمات أخرى كبيرة. بكلمة «مغامرة»! وكلمة «مستقبل»! وكلمة «أمل!». وبالمناسبة، هل تعرف الاسم المرموز

للقنبلة الذرية التي أطلقت على هيروشيما؟ اسمها «الصبي الصغير»! من وضع هذا الاسم عبقري! ليس بالإمكان العثور على اسم أفضل منه. صبيّ صغير، ولد، طفل، ما من كلمة أحنّ منها، ولا أكثر تأثيرا، ولا أشد امتلاء بالمستقبل.

- نعم، فهمت، قال جان مارك باغتباط. إنها الحياة بعينها تحلّق على هيروشيما في صورة صبي صغير يرسل على الخرائب بوْل الأمل الذهبي. هكذا افتتحت مرحلة ما بعد الحرب». رفع كأسه وقال: «فلنشرب نخبا!».

11

كان طفلها في الخامسة من عمره لما وارته التراب. وقد قالت لها شقيقة زوجها خلال العطلة في ما بعد: «أنت مغتمّة كثيرا. ينبغي أن تنجبي طفلا آخر. هذا فقط هو ما سيساعدك على النسيان.» جعلتها ملاحظة شقيقة زوجها تشعر بانقباض في القلب. طفل:

وجود من دون سيرة حياة، ظلٌّ يمّحي بسرعة في خَلَفه. لكنها لم تكن تسعى لنسيان طفلها. كانت تدافع عن فردانيته التي لا تعوّض. تدافع عن ماض ضد المستقبل، الماضي الذي أهمله واحتقره هذا الميت المسكين. أسبوع بعد ذلك قال لها زوجها: «لا أريد أن تغرقي في الاكتئاب. علينا أن ننجب طفلا آخر بسرعة، وهذا سيجعلك تنسين.» ستنسين: لم يكلف نفسه حتى البحث عن صيغة أخرى! عندئذ تولّدت داخلها فكرة تَرْكِه.

كان واضحا بالنسبة إليها أن زوجها -وهو رجل خانع- لم يكن يتحدث باسمه، بل باسم مصالح العائلة الكبيرة التي تسيطر عليها أخته. كانت تعيش مع زوجها الثالث ومع طفليها اللذين ولدا من زيجاتها السابقة؛ وقد نجحت في الحفاظ على علاقات طيّبة مع زوجيها السابقين، كما نجحت في جمعهما حولها، مثلما لمّت عائلات أشقائها وبنات عمّها. وكانت هذه الاجتماعات الكبيرة تقام خلال العطل في فيللا ريفية ضخمة. حاولت إدماج شانطال في القبيلة حتى تصبح، على نحو تدريجي لا يكاد يُلْمَس، جزءا منها.

وهناك، في تلك الفيلا الضخمة، كانت أخت زوجها، ثم زوجها،

يحثّانها على إنجاب طفل آخر. وهناك، في غرفة نوم صغيرة، رفضت أن يضاجعها. كانت كلّ دعوة من دعواته الجنسية تذكّرها بالحملة العائلية كي تحبل من جديد، فصارت فكرة ممارسة الجنس معه فكرة سخيفة. شعرت بأن كل أعضاء القبيلة: الجدات والآباء وأبناء الإخوة وبناتهم والأنسباء، كانوا كلهم يتنصتون عليهما من خلف الأبواب، ويتفحّصون سرّا أغطيةِ سريرهما، ويراقبون تعبها الصباحي. كانوا جميعهم يستبيحون حق النظر إلى بطنها. حتى أبناء الأشقاء وُظفَّوا كمرتزقة في هذه الحرب. قال لها أحدهم: «لِمَ لا تحبين الأطفال يا شانطال؟» فأجابته فجأة بفتور:»لِمَ تظن بأني لا أحبهم؟» فلم يعرف بماذا يجيب. وتابعت كلامها غاضبة: «من قال لك إني لا أحب الأطفال؟» كانت تنظر إليه بقسوة، فأجابها الصبي بصوت فيه مزيج من الخجل والوثوق: «لو كنت تحبين الأطفال لأَمكنك أن تنجبي واحداً.»

بعد عودتها من العطلة، تصرفت بحزم: رغبت في البداية أن تعود إلى وظيفتها. كانت قبل إنجاب طفلها مدرّسة في الثانوية. وبما أن الأجر كان زهيدا، فقد أحجمت عن العودة إلى هذه الوظيفة، وفضّلت

عليها وظيفة لا تتوافق مع ميولها (لأنها كانت تحبّ التدريس) لكن الراتب فيها كان أفضل بثلاثة أضعاف. كانت تشعر بتأنيب الضمير من خيانة ذوقها من أجل المال، لكن ما العمل، إنها الطريقة الوحيدة للحصول على استقلالها. ومع ذلك، لا يكفي المال لتحقيق ذلك. كانت بحاجة إلى رجل أيضا، رجل يكون مثالا حيّا لحياة مختلفة، لأنها إذا كانت تسعى بهوس إلى التجرد من حياتها السابقة، فإنها لم تكن تستطيع تخيل حياة أخرى.

كان عليها أن تنتظر بضع سنوات قبل أن تلتقي جان مارك. وبعد خمسة عشر يوما، طلبت الطلاق من زوجها الذي فوجئ بالأمر، فوصفتها أخت زوجها، بإعجاب ممزوج بالعداء، بالنّمرة: «تتجمَّدين في مكانك، لا يعرف أحد ماذا يدور في رأسك، ثم تنقضّين». وما هي إلا ثلاثة أشهر حتى اشترت شقة استقرت فيها مع عشيقها، مستبعدة فكرة الزواج.

رأى جان مارك في المنام أنه خائف على شانطال، بحث عنها، ركض في الشوارع، فرآها أخيرا، من الخلف، تسير وتبتعد. ركض وراءها وناداها باسمها. لم تعد تبعد عنه إلا بخطوات، التفتت إليه، فرأى بذهول وجها آخر، وجهاً غريباً وبشعاً. ومع ذلك، لم تكن شخصا آخر، بل شانطال، شانطاله، لا مراء في ذلك؛ لكنها بوجه شخص مجهول. استفظع الأمر، استفظعه بشكل لا يطاق. عانقها، وضمّها إليه مرددا وهو يشهق: شانطال، صغيرتي، شانطال يا صغيرتي! كما لو كان يأمل من خلال ترديد هذه الكلمات، أن يعيد هذا الوجه المتحول إلى مظهره الأصلي وهويته المفقودة.

أيقظه هذا الحلم. لم تكن شانطال في سريرها. سمع ضجة الحمّام الصباحية. شعر وهو ما يزال تحت تأثير الحلم بحاجة ملحة لرؤيتها. نهض وتوجه إلى الباب الموارب، وقف أمامه وأخذ يحدق فيها كمتلصص متلهف لاختلاس مشهد حميمي. تأملها: لقد كانت فعلا شانطاله كما عرفها دائما: كانت منحنية على حوض المغسلة، تفرك أسنانها، تبصق اللعاب الممزوج بمعجون الأسنان. كانت

مركِّزة على ما تفعل بشكل مضحك وطفولي إلى درجة أنها أثارت بسمة جان مارك.

وكما لو أنها استشعرت نظرته، استدارت ونظرت إليه واقفا عند الباب، أغضبها ذلك، لكنها تركته يقبّلها في فمها الذي كان ما يزال أبيض. وقالت له: «هل ستأخذني من مكتب الوكالة هذا المساء؟»

دخل إلى القاعة حوالي الساعة السادسة، اجتاز الرواق وتوقف أمام باب المكتب. كان مواربا مثلما كان باب الحمّام في الصباح. رأى شانطال بصحبة امرأتين، كانتا من زميلاتها. لم تكن مثلما كانت في الصباح. كانت تتحدث بصوت أقوى ممّا اعتادت، وكانت حركاتها أسرع، وأكثر حزما وتسلّطا. لقد عثر في الحمام ذلك الصباح على الكائن الذي فقده خلال الليل، والذي أخذ في التغيّر أمام أنظاره من جديد عند نهاية الظهيرة.

دخل، فابتسمت له. لكنها ظلّت جامدة في مكانها، وكانت ابتسامتها فاترة. لقد غدا التقبيل على الخدّين عرفا شبه إجباري في العقدين الأخيرين، ولذلك صار شاقا بالنسبة للعشاق. كيف السبيل إلى تجنب هذه العادة عندنا يكون اللقاء على مرأى من الآخرين، ولا

نريد أن يعتبروننا متخاصمين؟ اقترب من شانطال بانزعاج ومدّت له خديّها. كانت حركاتها مصطنعة، بحيث أشعرتهما بالزيف. خرجا، ولم تعد شانطال بالنسبة إليه تلك التي يعرف إلا بعد مضيّ لحظات طويلة.

هكذا هو الأمر دائما: فبين اللحظة التي يراها واللحظة التي يعثر فيها على من يحبّ، ثمة طريق ينبغي أن يسلكه. فخلال لقائهما الأول، في الجبل، حالفه الحظ في الاختلاء بها فور تعرّفه عليها تقريبا. لو كان رافقها بصحبة الآخرين طويلا قبل الاختلاء بها، أكان سيجد فيها الكائن المحبوب؟ لو لم يعرف فيها غير الوجه الذي تبديه لزملائها ورؤسائها ومرؤوسيها، أكان هذا الوجه سيثيره ويسحره؟ إنه لا يملك جوابا لهذين السؤالين.

13

ربما انحفرت في أعماقه جملة «لم يعد الرجال يلتفتون إليّ» بسبب حساسيته المفرطة في مثل هذه اللحظات الغريبة: ذلك أن

شانطال لمّا لفظتها بدت مثل كائن غريب. لم تكن هذه الجملة تشبهها، مثلما لم يكن يشبهها وجهها الذي بدا قاسيا وعجوزا. في البداية أحس بالغيرة: كيف لها أن تشكو عدم اكتراث الرجال الآخرين بها، في الوقت الذي كان فيه هو صباح ذلك اليوم بالضبط مستعدا لأن يموت على الطريق كي يلحق بها بأسرع وقت ممكن؟ لكن بعد أقلّ من ساعة من ذلك، انتهى به الأمر إلى أن قال لنفسه: تقيس المرأة مدى شيخوختها بحسب اهتمام الرجال بجسدها أو عدمه. أليس من السخافة أن يغيظه ذلك؟ وحتى من دون غيظ، لم يكن متفقا معها، لأنه لاحظ آثار شيخوخة خفيفة على وجهها (فهي تكبره بأربع سنوات) يوم لقائهما الأول. فجمالها الذي سحره يومئذ لم يكن يُظهرها أصغر من سنها؛ بل يمكن القول بالأحرى إن عمرها جعل جمالها أجلى.

ظلّت جملة شانطال ترنّ في رأسه، فتخيّل قصة جسدها: كان ذلك الجسد ضائعا بين ملايين الأجساد الأخرى حتى اليوم الذي حطّت عليه نظرة مليئة بالرغبة، فسحبته من عتمة التعدد. بعد ذلك، تضاعفت النظرات وألهبت هذا الجسد الذي أخذ يجتاز العالم منذ

ذلك الحين مثل شعلة. كان ذلك زمنا مَجيدا وضِّاءً؛ لكن سرعان ما بدأت النظرات تندر، والنور يخبو بالتدريج، إلى اليوم الذي أخذ فيه هذا الجسد يتجوّل في الشوارع مثل عدَم متجوّل، نصف شفاف في البداية، ثم شفاف، ليصير غير مرئي لاحقًا. في هذه الرحلة التي تقود من اللامرئية الأولى إلى الثانية تُمثِّل جملة: «لم يعد الرجال يلتفتون إليّ»، تلك الإشارة الحمراء التي تنبه إلى بدء انطفاء الجسد التدريجي.

مهما صرّح لها بأنه يحبها ويجدها جميلة، فإن نظرته العاشقة ما كانت لتواسيها، لأن نظرة الحب هي نظرة العزلة. كان جان مارك يفكر بعزلة كائنين عجوزين لم يعد الآخرون يرونهم: إنها عزلة حزينة تستبق الموت. كلا؛ ما تفتقده ليس نظرة الحب، بل طوفان نظرات مجهولة وبذيئة وشهوانية، تحطّ عليها بلا عطف، بلا خيار ولا حنان ولا تهذيب. نظرات حتمية لا مَفَرَّ منها. هذه النظرات هي التي تشدّها إلى مجتمع البشر. أما نظرة الحب فتنتزعها منه.

كان يفكر بندم في بداية حبهما السريعة التي تبعث على الدوار. لم يكن ثمة داع لبذل الجهد لاستمالة قلبها: كان قد نجح في أسرها

منذ اللحظة الأولى. أيلتفت إليها؟ ما جدوى ذلك. فقد كانت منذ البداية إلى جواره، قبالته، قربه. كان هو الأقوى وهي الأضعف منذ البداية. وترسّخت هذه اللامساواة في أساس حبّهما. إنها لامساواة غير مبررة وظالمة. فقد كانت هي الأضعف لأنها الأكبر سنّا.

14

عندما كانت في السادسة أو السابعة عشرة فتنتها إحدى الاستعارات. هل أبدعتها هي أم سمعتها أم قرأتها؟ لا أهمية لذلك: كانت تود أن تكون عطر ورد؛ عطرا فواحا وآسرا. كانت تود بذلك اختراق كل الرجال، ومن خلالهم، معانقة الأرض بأسرها. أريج ورد فوّاح: إنها استعارة ترمز للمغامرة. تفتّحت هذه الاستعارة عند عتبة سن الرشد، مثل وعد رومنسي لاختلاط هادئ؛ مثل دعوة سفر عبر الرجال. لكنها لم تكن بطبعها امرأة مخلوقة لتبديل العشاق. وسرعان ما غفا هذا الحلم العاطفي المبهم في زواجها الذي بدا زواجا هادئا وسعيدا.

بعد ذلك بفترة طويلة، وبعد أن تركت زوجها، بعد سنوات من

ارتباطها بجان مارك، وجدت نفسها ذات يوم مع جان على الشاطئ: تناولا العشاء في الخارج على سطيحة من ألواح خشبية وضعت فوق الماء، احتفظت من ذلك بذكرى بياض قوية. كل شيء كان أبيض اللون: الألواح والطاولات والكراسي والمناديل؛ وكانت الفوانيس مطلية بالأبيض يشع منها نور أبيض في سماء صيفية لم تكن قد تعتمت بعد، حيث كان القمر الأبيض بدوره يجعل كل شيء من حوله أبيض. وشعرت في حمّام البياض هذا بحنين إلى جان مارك لا يُحتمل.

حنين؟ كيف يمكن أن تشعر بالحنين إليه وهو جالس قبالتها؟ كيف نتألم من غياب شخص حاضر أمامنا؟ (لربما يعرف جان مارك الجواب: يمكن الشعور بألم الحنين مع وجود المحبوب إذا كنا نتوقع اختفاءه في المستقبل، إذا كان موته حاضرا سلفا بشكل ضمني).

خلال دقائق الحنين الغريب هذه، على شاطئ البحر، تذكرت فجأة طفلها المتوفى، فغمرتها موجة من السعادة. وسرعان ما راعها هذا الإحساس. لكن لا أحد يستطيع مقاومة الأحاسيس؛ فهي حاضرة لا تستطيع الرقابة إلغاءها. يمكن أن نلوم أنفسنا على فعل أتيناه، أو عبارة تلفظنا بها، لكننا لا يمكن أن نلوم أنفسنا على إحساس، لأننا

ليس لنا سلطان عليه. أفعمتها ذكرى ابنها الميت بالسعادة، لم يكن أمامها سوى التساؤل عن معنى ذلك. كان الجواب واضحا: يعني ذلك أن وجودها إلى جانب جان مارك كان مطلقا، وهو مطلق بفضل غياب ابنها. كانت سعيدة بموت ابنها. كان بودها وهي جالسة قبالة جان مارك أن تعلن عن ذلك بصوت مرتفع، لكنها لم تجرؤ. لم تكن واثقة من ردّة فعله، خشيت أن يعدّها وحشا.

كانت تتلذذ بغياب المغامرات المطلق. المغامرة: طريقة لفهم العالم. لم تعد ترغب في فهم العالم مطلقا. لم تعد تريد العالم.

كانت تنتشي بسعادة كونها بلا مغامرات، بلا رغبة في المغامرة. تذكرت استعارتها ورأت وردة تذبل بسرعة، كما لو كانت في فيلم جرى تسريع حركته، حتى لم يتبق من الوردة سوى ساقها الرفيعة السوداء، التي تضيع إلى الأبد في فضاء سهرتهما الأبيض: الوردة المذابة في البياض.

في ذلك المساء نفسه، وقبيل نومها (وقد كان جان مارك سبقها إلى النوم) تذكرت مرة أخرى طفلها الميت. ومن جديد رافقت هذه الذكرى موجة مخزية من السعادة. وقالت في نفسها إن حبها لجان

مارك كان هرطقة، وانتهاكا لشرائع البشر غير المكتوبة، البشر الذين كانت تبتعد عنهم. قالت في نفسها بأن عليها أن تخفي مغالاتها في حبها حتى لا تثير سخط الآخرين البغيض.

15

كانت دائما هي أول من يغادر الشقة في الصباح. تمرّ على صندوق البريد لتأخذ منه رسائلها تاركة فيه رسائل جان مارك. في ذلك الصباح وجدت رسالتين: الأولى باسم جان مارك (ألقت عليها نظرة خاطفة، كان الختم من بروكسل) والثانية باسمها، لكنها كانت بلا عنوان ولا طابع. لا شك أن أحدهم أحضرها شخصيا. وبما أنها كانت مستعجلة، فقد وضعتها في حقيبتها دون فتحها، وحثت الخطى إلى الباص. لمّا جلست، فضّت غلاف الرسالة. كانت عبارة عن جملة واحدة: «أتعقبك مثل جاسوس، أنت جميلة، جميلة جدا».

كان أول إحساس ساورها هو الانزعاج. ذلك أن أحدهم شاء

حشر أنفه في حياتها من غير استئذان، ولفت نظرها إليه (قدرتها على الانتباه محدودة ولا تملك طاقة كافية لتوسيعها). باختصار، أراد إزعاجها. ثم قالت في نفسها إن الأمر لا يعدو أن يكون شيئا تافها. فأي امرأة لم تستلم يوما رسالة مماثلة؟

أعادت قراءة الرسالة وانتبهت إلى أن المرأة الجالسة بجوارها يمكنها أن تقرأها أيضا، فأعادتها إلى حقيبتها وألقت نظرة حواليها. رأت الناس جلوسا وهم ينظرون بشرود إلى الشارع عبر النافذة، وفتاتين تعرضان ضحكاتهما، وشابا أسمر واقفا قرب باب الخروج، طويلا ووسيما، يحدق فيها؛ امرأة مستغرقة في قراءة كتاب، أمامها بالتأكيد طريق طويلة.

هي معتادة في الباص على تجاهل الجميع، لكن بسبب هذه الرسالة، تهيأ لها أنها مراقبة، لذلك بدأت تراقب هي أيضا ما يدور حولها. هل هناك دائما من يراقبها بإمعان كما يفعل هذا الأسمر اليوم؟ ابتسم لها كما لو كان يعرف ما قرأته لتوها. ماذا لو كان هو كاتب الرسالة؟ نزعت هذه الفكرة العبثية من رأسها ونهضت لتستعد للنزول في المحطة القادمة. كان عليها المرور بجوار الأسمر الذي

سدّ الممر المؤدي إلى باب الخروج، وهو أمر أزعجها. وما إن وقفت بمحاذاته، حتى فرَمَلَ الباص، فاختل توازنها للحظة، فانفجر الرجل الأسمر الذي كان ما يزال يحملق فيها ضاحكا. غادرت الباص وهي تقول في نفسها: لم يكن الأمر مغازلة بل سخرية.

ظلت تتردد هذه الضحكة الساخرة في ذهنها طيلة اليوم كما لو كانت نذير شؤم. ألقت على الرسالة نظرتين إضافيتين أو ثلاثا وهي في مكتبها، ولما عادت إلى المنزل تساءلت عما ستفعل بها. أتحفظها؟ لماذا؟ أتعرضها على جان مارك؟ ربما أزعجه ذلك؛ ربما فهم منها أنها تقصد المباهاة! هل تتلفها إذن؟ بالطبع. قصدت المرحاض، انحنت على الحوض، ونظرت إلى السطح السائل، ثم مزقت الغلاف إلى قطع صغيرة وألقت بها فيه، سحبت طراد المياه؛ لكنها طوت الرسالة وحملتها إلى غرفتها. فتحت خزانة ملابسها الداخلية ووضعتها تحت حمالات صدرها. وتناهت إلى سمعها من جديد، وهي تفعل ذلك، ضحكة الشاب الأسمر الساخرة، فقالت في نفسها إنها مثل كل النساء، وعندها بدت لها حمالات صدرها سوقية ونسوية بشكل غبي.

16

ما كادت تمضي ساعة على دخولها المنزل، حتى أطلعها جان مارك على إبلاغ توصّل به: «وجدته هذا الصباح في صندوق البريد. لقد توفي «ف».»

شعرت شانطال بما يشبه الفرح لكون رسالة أخرى، أكثر جدية، جاءت لتحجب تفاهة رسالتها. أمسكت جان مارك من تحت ذراعه وقادته إلى الصالة كي تجلس قبالته.

قالت: «إنك مصدوم على كل حال.»

- كلا، قال جان مارك، بالأحرى أشعر بالاضطراب لكوني غير مضطرب.

- ألم تغفر له لغاية الآن؟

- غفرت له كل شيء. المسألة ليست هنا. حدثتك عن إحساس الفرح الغريب هذا الذي شعرت به حين قررت، فيما مضى، عدم رؤيته مجددا. كنت باردا مثل قطعة ثلج، وكنت أستمتع بذلك. ومن

ثم، لم يغير موته شيئا من إحساسي هذا.

- إنك تخيفني. تخيفني حقا».

نهض جان مارك لجلب زجاجة الكونياك وكأسين. وبعد أن بلع جرعة قال: «عند نهاية زيارتي له في المستشفى، شرع يروي الذكريات. ذكَّرني بما قد أكون قلته لما كنت في السادسة عشرة. حينئذ فهمت المعنى الوحيد للصداقة كما تمارس في أيامنا. فالصداقة لا غنى للإنسان عنها لكي تعمل ذاكرته كما ينبغي. فتذكر الفرد لماضيه، وحمله معه دائما، هو ربما الشرط الضروري لكي يحافظ، كما يقال، على وحدة أناه. فحتى لا تضمُر الأنا، ولكي تحتفظ بحجمها، ينبغي سقي الذكريات مثلما تسقى الزهور في الأصص، وهذا السقي يستلزم اتصالا منتظما بشهود الماضي، أي بالأصدقاء. فهم مرآتنا وذاكرتنا؛ ونحن لا نطالبهم بشيء سوى صقل هذه المرآة بين الفينة والأخرى، حتى نتمكن من رؤية أنفسنا. لكنني لم أعد أعبأ بما فعلته في الثانوية! فما كنت أرغب فيه دائما، منذ شبابي البعيد، منذ طفولتي ربما، كان غير ذلك: فالصداقة كقيمة سامية أعلى من كل شيء آخر. كنت أحب أن أقول: لو خيّرت بين الحقيقة والصديق، لاخترت الصديق دائما.

كنت أقول ذلك للاستفزاز، لكني كنت أومن به حقا. اليوم أدرك أن هذا القول المأثور قد عفا عنه الزمن. قد يصلح لـ«أخيل»، صديق «باتروكل»، ولفرسان «ألكسندر دوما»، وحتى لـ «سانشو» الذي كان صديقا حقيقيا لسيده رغم خلافاتهما. بيد أنه لم يعد صالحاً بالنسبة إلينا. فأنا أمعن بعيدا في تشاؤمي إلى درجة أني مستعد اليوم لتقديم الحقيقة على الصداقة.»

وأضاف بعد أن رشف جرعة ثانية: «كانت الصداقة بالنسبة إليّ الدليل على وجود شيء أقوى من الإيديولوجيا ومن الدين والأمة. في رواية «دوما»، غالبا ما يجد الأصدقاء الأربعة أنفسهم في معسكرات متواجهة، فيضطرون لمحاربة بعضهم بعضا. لكن ذلك لم يفسد لصداقتهم ودّا. فهم لم يتوانوا عن مساعدة بعضهم بعضا خفية، وبدهاء، ساخرين من حقيقة معسكر كل منهم. لقد وضعوا صداقتهم فوق الحقيقة، فوق القضية، فوق الأوامر السامية، فوق الملك، فوق الملكة، فوق كل شيء.»

داعبت شانطال يده، ثم أضاف بعد فترة استراحة: «لقد كتب دوما قصة الفرسان قبل قرنين. فهل كان يشعر بالحنين إلى فضاء الصداقة

المفقود؟ أم أن اختفاء الصداقة ظاهرة متأخرة؟

- لا أستطيع أن أجيبك. ليست الصداقة قضية النساء.

- ماذا تقصدين؟

- أقصد أن الصداقة مشكلة الرجال. إنها رومنسيتهم. وليست رومنسيتنا».

بلع جان مارك جرعة كونياك، وعاد إلى أفكاره: «كيف نشأت الصداقة؟ بالتأكيد نشأت كتحالف ضد العداء، إذ لولاها لوجد الرجل نفسه أعزل أمام أعدائه. ربما لم تعد هناك حاجة ماسة لمثل هذا التحالف.

سيكون ثمة أعداء دائما بالطبع، لكنهم غير مرئيين ومجهولين. كالإدارات والقوانين. ماذا بوسع صديق أن يفعل من أجلك حين يقررون بناء مطار قبالة نوافذك، أو حين تُسَرّح من العمل؟ فإن مَدَّ لك أحد يد العون، سيكون بدوره مجهولاً وغير مرئي: منظمة مساعدة اجتماعية، جمعية الدفاع عن حقوق المستهلكين، مكتب محاماة. لم يعد التحقق من الصداقة واختبارها متاحا. لم تعد هناك فرصة للبحث عن صديق جريح في ساحة الوغى، ولا استلال سيف

لتخليصه من قطاع الطرق. فنحن نعبر حياتنا بدون مخاطر تذكر، ولكن من دون صداقة أيضا.

- لو كان هذا صحيحا لدفعك للتصالح مع «ف».

- أسلّم طوعا بأنه لم يكن ليفهم مآخذي عليه لو أطلعته عليها. عندما تحامَلَ عليَّ الآخرون، لم ينبس ببنت شفة. لكن عليّ أن أكون عادلا، لقد عدَّ صمته شجاعة. قيل لي بأنه ذهب إلى حد المباهاة بعدم الرضوخ لحالة الذّهان التي كانت مستعرة ضدي، وبأنه لم يقل شيئا يضرُّني. لقد كان إذن مرتاح الضمير، وشعر من ثمة بالإساءة عندما انقطعتُ، من دون تفسير، عن رؤيته. كنت مخطئا لما انتظرت منه أكثر من الحياد. لو كان تجرأ ودافع عني في هذا المحيط الفظ الخبيث، لعرّض نفسه للمصائب والمتاعب والمضايقات. كيف سمحت لنفسي بمطالبته بذلك؟ سيما وأنه صديقي! لقد كان ذلك من ناحيتي بعيدا كل البعد عن الصداقة! بمعنى آخر: لقد كنت فظا معه، لأن الصداقة لما أُفرغت من معناها القديم تحولت اليوم إلى عقد تقدير متبادل، وباختصار إلى عقد احترام. في حين أنه من سوء التهذيب مطالبة صديق بشيء قد يضايقه أو أن يزعجه.

- الأمر كذلك بالطبع. لكن عليك أن تقوله من دون مرارة، ومن دون سخرية.

- أقوله من دون سخرية. الأمر هكذا.

- إذا انصبّت عليك الكراهية، وصرت متهما، وأُلقيَ بك للوحوش، فانتظر ممّن يعرفونك ردّتي فعل: بعضهم سيسعى للحصول على حصته من الغنيمة، وبعضهم الآخر سيتظاهرون، متكتمين، بأنهم لا يرون ولا يسمعون شيئا، بحيث يمكنك الاستمرار في لقائهم والتكلم معهم. هذه الفئة الثانية المتحفّظة اللطيفة، هم أصدقاؤك. أصدقاء بالمعنى الحديث للكلمة. اسمع يا جان مارك، هذا أمر خبرته منذ زمن بعيد.»

17

تظهر على الشاشة عجيزة جميلة ومثيرة، في لقطة مكبرة وفي وضع أفقي. ثمة يد تداعبها بحنان، متلذذة ببشرة هذا الجسد العاري،

المتفاني والمتحرر. ثم تبتعد الكاميرا فنرى الجسد بكامله، متمددا على سرير صغير: إنه رضيع تنحني عليه أمه. في المشهد التالي، ترفعه، فتقبل شفتاها المنفرجتان فمه الرخو، الرطب، المفتوح على سعته. في هذه اللحظة تقترب الكاميرا من جديد، لتصير فجأة القبلة المصورة عبر لقطة مكبرة، قبلة حب شبقية.

أوقف «لوروا» الفيلم عند هذه اللقطة: «نحن نبحث دائما عن الأغلبية، على غرار مرشحي الرئاسة في الولايات المتحدة خلال حملتهم الانتخابية. فنحن نضع منتوجا في الدائرة المدهشة للصور القادرة على اجتذاب أغلبية من المشترين. ففي بحثنا عن الصور، نميل إلى المبالغة في تقدير دور الجنس. أحذركم من هذا، لأن قلة قليلة فقط هي التي تستمتع حقا بالحياة الجنسية».

توقف «لوروا» كي ينتشي بمفاجأة اجتماع معاونيه الذين يستدعيهم مرة في الأسبوع لحضور ندوة حول حملة أو دعاية أو ملصق. وهم يدركون منذ زمن بعيد أن ما يثير رئيسهم ليست موافقتهم المتعجلة على رأيه، بل دهشتهم. لذلك تجرأت سيدة أنيقة، تضع العديد من الخواتم في أصابعها التي ظهرت عليها عوامل الشيخوخة، على معارضته: «كل

استطلاعات الرأي تؤكد عكس ما تقول!». فأجابها «لوروا»:

- بالتأكيد. هل ستقولين الحقيقة يا سيدتي العزيزة لو سألك أحد عن حياتك الجنسية؟ فحتى لو كان مستجوبك لا يعرف اسمك، وحتى لو كان يستجوبكِ عبر الهاتف ولا يراك، فإنك ستكذبين: «هل تحبين الجماع؟ - وكيف! - كم مرة؟ - ست مرات في اليوم! هل تحبين ممارسة الجنس بطرق حيوانية؟ حتى الجنون!». إنها تفاهات. الشبقية في المجال التجاري أمر غامض، لأنه إذا كان الناس قاطبة يشتهون الحياة الجنسية، فإنهم يكرهونها أيضا باعتبارها سبب شقائهم وحرمانهم واحباطاتهم وعُقدهم وعذابهم».

ثم عرض لهم من جديد المقطع نفسه من الإعلان التلفزيوني. نظرت شانطال إلى الشفتين الرطبتين المكبّرتين وهما تلمسان الشفتين الأخريين الرطبتين، فتنبّهت (وهي المرة الأولى التي تنتبّه فيها إلى ذلك بوضوح) إلى أنها وجان مارك لا يقبّلان بعضهما بعضاً أبدا بهذه الطريقة. فاندهشت من الأمر: أحقا أنهما لم يقبّلا بعضهما بهذه الطريقة قط؟

بلى. حدث ذلك عندما لم يكن أحدهما يعرف اسم الآخر. عندما

كانا في صالة فندق جبلي كبيرة، بين أناس يشربون ويثرثرون، تبادلا بعض الأحاديث المبتذلة، لكنهما أدركا من نبرة صوتيهما بأنهما يشتهيان بعضهما بعضا، فانسحبا إلى رواق خال، ومضيا يقبّلان بعضهما من دون أن ينبسا بكلمة. فتحت فمها وحشرت لسانها في فم جان مارك، وهي مستعدة لأن تلعق كل ما بداخله. لم يكن الاندفاع الذي أبان عنه لساناهما ضرورة شبقية، بل استنفارا لإشعار الآخر بأنه مستعد للعشق فورا، كلياً وبتوحّش، ومن دون إضاعة وقت. لم يكن للعابهما علاقة بالرغبة أو بالمتعة، بل كان رسالة، إذ لم يكونا يملكان الشجاعة ليجهرا لبعضهما بالقول مباشرة: «أريد ممارسة الجنس معك حالاً، من دون تأخير»، وتركا لعابهما يتحدث نيابة عنهما. لذلك لم يعد ربما (لم تعد تذكر، لكن مع مرور الزمن، أصبحت متيقنة تقريبا) فماهما يعيران اهتماما لبعضهما البعض خلال عناقهما العاشق (الذي تلا قبلتهما الأولى بساعات)، ولم يعودا يتلامسان ويتلاحسان، حتى إنهما لم ينتبها لعدم الاكتراث المتبادل الفاضح هذا.

أوقف «لوروا» الإعلان من جديد: «تكمن المشكلة في العثور

على صور تحافظ على الجاذبية الجنسية من دون إشعار المشاهد بالحرمان. هذه هي الزاوية التي تهمّنا: إثارة المخيلة الجنسية لكن مع تحويلها فورا إلى المجال الأمومي، لأن الاحتكاك الجسدي الحميمي، وغياب السرّ الشخصي، وامتزاج اللعاب، ليست أمورا مقصورة على الحياة الجنسية الراشدة. فكل ذلك موجود في علاقة الطفل بأمه، في هذه العلاقة التي تشكل الجنّة الأصلية لكل المباهج الحسية. وبهذا الخصوص فقد صُوّرت حياة جنين داخل بطن أمه، كان يمصّ عضوه الصغير في وضعية بهلوانية يستحيل علينا تقليدها. تلاحظون أن الجنس ليس حكرا على الأجساد الشابة المتينة البنيان التي تثير غيرة مريرة. فالمَصّ الذاتي الذي يقوم به الجنين سيثير حنان كل جدات العالم، حتى أشدهنّ قساوة، وأكثرهن احتشاما. لأن الرضيع هو القاسم المشترك الأقوى والأوسع والأضمن لكل الأغلبيات. والجنين، يا أصدقائي الأعزاء، هو أكثر من رضيع، إنه رضيع جامع، رضيع خارق!».

وعرض لهم مرة أخرى الإعلان، ومرة أخرى شعرت شانطال باشمئزاز من رؤية فَمَيْن رطبين يتلامسان. وتذكرت أن الثقافة

الجنسية في الصين واليابان، حسبما قيل لها، لا تعرف التقبيل بفم مفتوح. فتبادل اللعاب ليس إذن قدَراً محتوما في الممارسة الجنسية، بل هو نزوة، انحراف، قذارة خاصة بالغرب.

وختم «لوروا» بعد انتهاء العرض قائلا: «إن لعاب الأمهات هو اللصاق الذي سيجمع هذه الأغلبية التي نسعى لجمعها حتى تشكل زبائن لماركة روباشوف.» وصححت شانطال استعارتها القديمة: ليس عطر الوردة، المجرد، الشاعري، هو الذي يخترق الرجال، بل اللعاب المادي والنثري الذي يعبر من فم العشيقة، مصحوبا بجيش من الميكروبات، إلى فم العشيق، ومنه إلى فم زوجته، ومن الزوجة إلى طفلها، ومن الطفل إلى خالته، ومن الخالة -التي تعمل نادلة في مطعم- إلى الزبون عبر الحساء الذي بصقت فيه، ومن الزبون إلى زوجته، ومن الزوجة إلى عشيقها، ومنه إلى أفواه وأفواه أخرى، إلى درجة أن كل واحد منا غارق في بحر من اللعاب المتمازج الذي يجعل منا جماعة لعاب واحدة، إنسانية واحدة رطبة ومتّحدة.

18

عادت شانطال إلى البيت ذلك المساء على ضجة المحركات وأبواق السيارات وقد هدها التعب. فتحت باب العمارة متلهفة للسكينة، فسمعت صراخ عمال وضربات مطرقة. كان المصعد معطلا. وبينما كانت تصعد الدرج، أحست بالحرارة الكريهة تجتاحها، وكانت ضربات المطرقة تدوّي في قفص السلم بأكمله كأنها إيقاع طبل يصاحب هذه الحرارة، فيفاقمها ويضخمها ويمجّدها. عندما وصلت إلى باب الشقة كانت تنضح عرقا، فتوقفت وانتظرت لحظة كي لا يراها جان مارك متنكرة بهذه الحمرة.

وقالت في نفسها: «تقدم لي النار الحارقة بطاقة زيارتها». هذه الجملة لم تخترعها، بل عبرت ذهنها من دون أن تعرف كيف تم ذلك. رددتها عدة مرات وهي واقفة أمام الباب وسط الضجة المتواصلة. لم تحب هذه الجملة، إذ بدا لها وقعها الجنائزي المبهرج مشينا، لكنها لم تفلح في طردها.

سكتت المطارق أخيرا، وبدأت الحرارة بالانخفاض، فدخلت. قبَّلها جان مارك، لكن ما إن شرع يروي لها شيئا حتى دوت المطرقة من جديد بالرغم من أن طَرَقاتها بدت أضعف. أحست بأنها ملاحقة، وبأن لا ملجأ لها تأوي إليه. كانت بشرتها ما تزال مبللة، فقالت من دون أي ترابط منطقي: «النار الحارقة هي الحل الوحيد لكي لا نترك لهم أجسادنا يعبثون بها».

لاحظت نظرة جان مارك المذهولة، فانتبهت لفظاظة ما قالت، وانتقلت بسرعة إلى الحديث عن الإعلان الذي رأته، وعما حكاه لهم «لوروا»، ولاسيما الجنين الذي صور في أحشاء أمه وهو يستمني في وضعية بهلوانية متقنة لن ينجح أي راشد في محاكاتها.

«تصور! جنين ذو حياة جنسية. فهو لم يكتسب بعد وعيا ولا حياة خاصة ولا إدراكاً، ولكنه يشعر مع ذلك بغزيرة جنسية، وربما، بلذّة. فحياتنا الجنسية إذن تسبق وعينا بأنفسنا. أنانا لم توجد بعد، ولكن شهوانيتنا حاضرة. تخيل! لقد أثارت هذه الفكرة كل زملائي! ذرفت أعينهم دمعا أمام الجنين المستمني!

- وأنت؟

- أوه، شعرت بالتقزز، آه يا جان مارك، شعرت بالتقزز.

ضمَّته وقد ساورها انفعال غريب، شدَّته إليها بقوة، وظلت على هذه الحال لثوان. ثم تابعت: «أتتخيل، فهم يتجسسون عليك حتى في بطن أمك، الذي يشاع أنه مقدس، ويراقبون استمناءك، استمناءك المسكين. لن تفلت منهم ما دمت حيّا. هذا أمر معروف. بل لن تستطيع الإفلات منهم حتى قبل ولادتك، مثلما لن تهرب منهم بعد موتك. أذكر ما قرأته يوما في صحيفة: اتهم بالاحتيال شخص عاش تحت اسم ارستقراطي روسي كبير منفي. وبعد موته، ولإفحامه، سحبوا من القبر رفاة فلاحة يعتقد أنها والدته. فُحصت عظامها، وحُللت جيناتها. ليتني أعرف أي قضية نبيلة خوّلت لهم الحق في نبش قبر هذه المرأة المسكينة! وفي تفحص عريها، عريها المطلق، عري الهيكل العظمي الشامل! آه يا جان مارك، لا أحسّ إلا بالاشمئزاز، بالاشمئزاز. هل تعرف قصة رأس «هايدن»؟ جُزّ الرأس من الجثة وهي ما تزال ساخنة حتى يتمكن عالم معتوه من تحديد موضع عبقرية الموسيقار. وقصة «اينشتاين»؟ لقد أوصى كتابةً بحرق جثته. طُبقت وصيته، لكن تلميذه المخلص المطيع، رفض العيش بدون

نظرة أستاذه. لذلك اقتلع العينين من الجثة قبل حرقها، ووضعهما في زجاجة كحول حتى تستمران في النظر إليه إلى أن يتوفاه الأجل. لهذا قلت لك قبل قليل ليس ثمة سوى النار الحارقة كي تفلت أجسادنا منهم. إنه الموت المطلق الوحيد. وأنا لا أريد سواه. أريد هذا الموت المطلق يا جان مارك.

بعد وقفة قصيرة، عادت أصوات المطرقة لتدوي في الغرفة من جديد.

- ليس ثمة غير المحرقة لكي أكون متيقنة من عدم سماعهم.

- ما بك يا شانطال؟

نظرت إليه، ثم أدارت له ظهرها. شعرت بالانفعال من جديد. انفعلت هذه المرة لا بما قالته لتوها بل بسبب صوت جان مارك المفعم بالعناية التي يوليها إياها.

ذهبت إلى المقبرة في اليوم التالي (كما اعتادت أن تفعل مرة في الشهر على الأقل) ووقفت أمام قبر ابنها. عندما تكون هنالك، تتحدث معه دائما، وفي هذا اليوم قالت له، وكما لو كانت مضطرة لأن تفسر له موقفها، أو تبرر سلوكها: لا تعتقد يا عزيزي بأني لا أحبك أو لم أحبك، ولكن لأنني أحببتك ما كان لي أن أصير مثلما أنا الآن لو كنت ما تزال حيّا. من المستحيل أن يكون للمرء طفل وأن يستمر في احتقار العالم كما هو، لأننا أرسلناه إلى هذا العالم. فنحن نتمسك بالعالم من أجل الطفل، نفكر في مستقبله، نشاركه ضجته وشغبه طوعا، ونأخذ حماقاته التي لا علاج لها على محمل الجد. فبموتك حرمتني من متعة أن أكون معك، لكنك في الوقت نفسه جعلتني حرة. حرة في مواجهة العالم الذي لا أحبه. وإذا كنت أبيح لنفسي أن لا أحبه، فلأنك لم تعد موجودا هنا. فأفكاري القاتمة لم تعد تستطيع أن تجلب لك اللعنة. أريد أن أقول لك الآن بعد سنوات من رحيلك بأنني فهمت موتك كهدية، وانتهى بي المطاف إلى قبول هذه الهدية الرهيبة.

20

في اليوم التالي وجدت في صندوق البريد مغلفا بخط المرسل المجهول نفسه. لم تكن الرسالة موجزة كسابقتها. كانت تشبه محضرا طويلا. كتب مرسلها يقول: «السبت الماضي، خرجت من منزلك أبكر من الأيام الأخرى، في الساعة التاسعة وخمس وعشرين دقيقة. اعتدت أن أتعقبك على طريقك باتجاه الباص، لكنك هذه المرة سلكت الاتجاه المعاكس. كنت تحملين حقيبة ودخلت مصبغة. يبدو أن صاحبة المحل تعرفك جيدا، وربما تحبك. راقبتها من الشارع: كانت كما لو أفاقت من غفوة، وصار وجهها وضاحا. لا شك أنكما تمازحتما، وتناهى إلى سمعي ضحكها، ضحك أنت من أثاره؛ وتهيأ لي أنني أبصرت فيه انعكاس وجهك. ثم خرجتِ من هناك وقد ملأتِ الحقيبة. أكان بداخلها سترات أم مناديل أم ألبسة داخلية؟ على كل حال، فقد خيّل لي أن الحقيبة أضفت على حياتك

شيئا مصطنعا». ثم مضى يصف فستانها ولآلئ عنقها «هذه اللآلئ لم أرها أبداً من قبل. إنها جميلة، ولونها الأحمر يناسبك كثيرا. إنها تجعلك تشعين نورا».

كانت الرسالة موقعة بأحرف: س.د.ب، وهو أمر حيّرها. لم تكن الرسالة الأولى تحمل توقيعا، مما جعلها تعتقد أن هذا التنكر صادق. مجهول يحييها ثم يختفي بسرعة، لكن مهما كان التوقيع مقتضبا، فهو يشي بنيّة الكشف عن هويته بالتدريج، أي خطوة خطوة، ولكن بشكل حتمي. ورددت في نفسها س.د. ب وهي تبتسم: سيريل ديدييه بورقيبه. شارل دافيد باربوروس.

تأملت متن الرسالة: قد يكون هذا الرجل تعقبها في الشارع، إذ كتب لها في رسالته الأولى «أتعقبك مثل جاسوس»، لا شك أنها رأته إذن. لكنها تنظر إلى العالم المحيط بها بقليل من الاكتراث، وبشكل أقل ذلك اليوم، لأن جان مارك يصحبها، وهو من أضحك صاحبة المصبغة وحمل الحقيبة. قرأت ثانية هذه الكلمات: «فقد خيّل لي أن الحقيبة أضفت على حياتك شيئا مصطنعا». كيف تضفي الحقيبة على حياتها شيئاً إذا كان جان مارك من يحملها؟ ألا يكون هذا الشيء

«الذي أضفي على حياتها» هو جان مارك نفسه؟ ألم يقصد مراسلها بهذا التعرض لحبيبها بطريقة ملتوية؟ ابتسمت، إذ انتبهت إلى ردّة فعلها الساخرة: فهي تدافع عن جان مارك حتى ضد عشيق متخيّل.

وعلى غرار المرة السالفة، لم تدر ما تصنع بالرسالة، ومن ثمة تكررت رقصة التردد نفسها بكافة مراحلها: تأملت حوض المرحاض حيث كانت تهم برميها، ومزّقت المغلف إلى قطع صغيرة وجعلتها تغور مع المياه، ثم طوت الرسالة وحملتها إلى غرفتها، حيث وضعتها تحت حمالات الصدر. وبينما كانت تنحني على رفّ الملابس الداخلية، سمعت الباب يفتح. أغلقت الخزانة بسرعة والتفتت: كان جان مارك على العتبة.

اتجه صوبها بتؤدة وحدّق فيها كما لم يفعل من قبل. كانت نظرته متوترة وغير مركزة، ولما صار قربها، أمسك بمرفقيها وأبقاها بعيدة عنه بنحو ثلاثين سينتمترا من دون أن يتوقف عن التحديق بها. شعرت بالارتباك، ولم تجد ما تقول. وحين صار ارتباكها لا يطاق، ضمّها إلى صدره وقال ضاحكا: «أريد أن أنظر إلى جفنك وهو يغسل قرنيتك مثلما تغسل المساحات زجاج السيارة الأمامي».

21

منذ لقائه الأخير مع «ف»، وهو يفكر في العين التي هي نافذة الروح. فهي مركز جمال المحيّا، والنقطة التي تتركز فيها هوية الفرد؛ لكنها في الآن ذاته أداة البصر التي ينبغي غسلها باستمرار، وترطيبها وصيانتها بسائل خاص يحوي جرعة من الملح. فالبصر إذن، وهو أعظم معجزة يملكها الإنسان، توقفه بانتظام حركة غسيل آلية شبيهة بحركة المساحات التي تغسل زجاج السيارة الأمامي. والحال أننا نستطيع اليوم، ضبط سرعة حركة المساحات بحيث تقطع مساحة الزجاج خلال عشر ثوان، وهو تقريبا إيقاع حركة الجفن.

ينظر جان مارك في عيون من يتجدّث اليهم ويحاول أن يراقب حركة الجفن؛ ويخلص إلى أن الأمر ليس باليسير. فنحن لم نتعود على الانتباه للجفن. ثم يقول في نفسه: لا شيء أبصره أكثر من عيون الآخرين، أي الجفون وحركاتها. ومع ذلك فأنا لا أنتبه لهذه الحركة. أنزعها من العيون التي أمامي.

وقال لنفسه أيضا: بينما كان الربّ يتسلى بالعمل في ورشته،

توصّل صدفة إلى صنع نموذج هذا الجسد الذي نحن ملزمين، لردح من الزمن، بأن نكون روحه. لكن ما أبأس أن يكون الإنسان روحاً لجسد مصنوع كيفما اتفق، ولا تستطيع عينه أن تبصر دون أن تُغسل كل عشر ثوان أو عشرين ثانية! كيف نصدّق بأن هذا الآخر الموجود أمامنا كائن حر، مستقل، سيد نفسه؟ كيف نصدق بأن جسده تعبير صادق عن الروح التي تستقرّ فيه؟ لتصديق ذلك، علينا نسيان رمشة الجفن المستمرة. كان يلزم نسيان ورشة الترميم التي خُلِقنا فيها. كما أنّ علينا الخضوع لعقد النسيان. فالرب نفسه هو الذي ألزمنا به.

لكن مضى وقت بالتأكيد بين طفولة جان مارك ومراهقته، فترة قصيرة لم يكن قد وعى فيها بعد هذا الالتزام بالنسيان، وكان ينظر خلالها مذهولا إلى الجفن وهو ينزلق على العين: لاحظ أن العين ليست نافذة تُرى من خلالها الروح فريدة وخارقة، بل هي آلة سيئة الصنع شغّلها أحدهم منذ غابر الأزمان. كان يلزم أن تكون لحظة جلاء المراهق الفجائية هذه صدمة. قال له «ف»: «لقد توقفت، ثم تفرَّستني وقلت بنبرة حازمة وغير معهودة: يكفيني أن أرى كيف ترمش عينها...» هو لا يذكر ذلك. كانت صدمة منذورة للنسيان.

وفعلا كان قد نسي ذلك إلى الأبد لو لم يذكّره به «ف».

عاد إلى المنزل وهو غارق في أفكاره، وفتح باب غرفة شانطال. كانت منهمكة في ترتيب شيء في خزانتها، فرغب في رؤية جفنها يمسح عينها، عينها التي تشكل بالنسبة إليه نافذة روح تتأبى على الوصف. تقدم إليها وأمسك بمرفقيها ونظر إلى عينيها. كانتا ترمشان فعلا، بل ترّفان بسرعة أكبر، كما لو شعرت بأنها تجتاز اختبارا.

ظل ينظر إلى الجفن يعلو وينخفض بسرعة، بسرعة كبيرة؛ وودّ لو يستعيد إحساسه المميز، إحساس جان مارك ذي السادسة عشر ربيعا الذي كان يعتبر آلية عمل هذه الحركة أمرا مخيبا بنحو يدعو إلى اليأس. لكن سرعة جفنيها الغريبة، وعدم انتظام حركاتهما المفاجئ، أثارت حنانه أكثر مما خيبت أمله: ففي مسّاحات جفن شانطال، أبصر جناح روحها، جناح يرتعش ويرتعب ويهتز. كان الانفعال مباغتا كالبرق، فضمهَّا إليه.

ثم خفّف ضمّه لها، فرأى وجهها مرتبكا مفزوعا، وقال لها: «أريد أن أرى جفنك يغسل قرنيتك كما تغسل المساحة زجاج السيارة.»

قالت له وهي تشعر بارتخاء مفاجئ: «لست أفهم ما تقوله.»

فحدثها عن الذكرى المنسية التي ذكَّره بها صديقه الذي لم يعد محبوبا.

22

«لما ذكرني «ف» بهذه الفكرة التي قد تكون خطرت على بالي وأنا تلميذ بالثانوية، تخيلت أنني أسمع شيئا عبثيا بالكامل.

أبداً قالت له شانطال: «كلا، كما أعرفك، لا بد أن تكون قلت ذلك. فهو يتماشى مع طبعك. تذكَّر دراستك الطب.!»

لم يكن يقلِّل قطّ من قيمة اللحظة السحرية التي يختار فيها المرء مهنته. فلأنه كان يعلم أن الحياة أقصر من أن تتيح للمرء تدارك سوء اختياره، فقد أكربه عدم انجذابه العفوي لأي مهنة من المهن. تفحّص محتارا قائمة الإمكانات المطروحة أمامه: وكلاء النيابة الذين ينذرون حياتهم لاضطهاد الآخرين؛ المدرِّسون الذين يعذبهم الأطفال المشاغبون، التخصصات التقنية التي لا تجلب لها

مزية التقدم العلمي سوى الأذى، ثرثرة العلوم الإنسانية التي بقدر ما هي معقدة، فإنّها فارغة، الهندسة المعمارية الداخلية (وقد كانت تستهويه بسبب ذكرى جده النجار) والتي صارت خاضعة بالكامل للموضة المقيتة لديه، مهنة الصيادلة المساكين الذين صاروا باعة علب وقوارير. ولما كان يتساءل: أي مهنة أختار لحياتي؟ كان يسيطر عليه أشد أنواع الصمت إرباكا. وإذا كان قرر دراسة الطب في آخر المطاف، فإنه بذلك لم يقع في إسار أي انجذاب خفي، بل خضع لمثالية غيريّة: كان يعتبر الطب هو المهنة الوحيدة المفيدة للإنسان بلا منازع، والذي يجلب تقدمه التقني أهون الأضرار.

وما لبثت الإحباطات أن حلت، لاسيما حين اضطر في السنة الثانية إلى قضاء وقته في قاعة التشريح: هناك تلقى صدمة لم يشفَ منها قط. فقد كان عاجزا عن النظر إلى الموت أمامه. وبعد فترة قصيرة، اعترف لنفسه بأن الحقيقة أدهى من ذلك: لم يكن يقوى على رؤية الجسد أمامه. والنظر إلى عدم كماله الحتمي غير المسؤول؛ وعدّاد التحلل الذي يحكم سيره ودمه وأحشاءه وألمه.

قد يكون عمره ستة عشر ربيعا لما حدّث «ف» عن اشمئزازه من

حركة الجفن. عندما قرّر دراسة الطب، قد يكون في التاسعة عشرة. في تلك الحقبة، وبما أنه كان قد وقع عقد النسيان، لم يعد يذكر ما قاله لـ «ف» قبل ثلاث سنوات من ذلك. للأسف، كان بإمكان هذه الذكرى أن تحذره. كانت ستجعله يدرك بأن اختيار الطب بالنسبة إليه كان اختيارا نظريا، حسمه دون أي معرفة بذاته.

هكذا درس الطب لثلاث سنوات قبل أن يهجره بشعور من يغرق. ماذا يختار بعد هذه السنوات الضائعة؟ بِمَ يتشبث إذا كانت دواخله قد ظلت خرساء كالسابق؟ نزل للمرة الأخيرة درج الكلية الخارجي ينتابه شعور بأنه سيجد نفسه وحيدا على رصيف محطة غادرتها كل القطارات.

23

حتى تكتشف هوية مراسلها سرا وبحذر، شرعت شانطال تنتبه لما حولها. في زاوية شارعهم كان ثمة حانة: كانت المكان الأنسب

لمن يريد التجسس عليها. فمدخل منزلها يُرى من هناك، كما يظهر الشارعان حيث تمرّ كل يوم اضافة الى محطة الباص. دخلتها وجلست، ثم طلبت فنجان قهوة وأخذت تتفحَّص الزبائن. رأت عند الكونتوار شابا كان، عندما دخلت، قد حوّل بصره عنها. التفت إليها حين دخلت. كان زبونا مواظبا تعرفه من بعيد، بل تذكرت أن نظراتهما التقت في السابق مرات عدة، وقد تظاهر في ما بعد بأنه لم يرها.

وفي يوم آخر أشارت بخصوصه لجارتها، فقالت: «إنه السيد دوبارو! - دوبارو أو دو بارو؟» لم تكن الجارة تعرف. «واسمه الشخصي، هل تعرفينه؟» لا، لم تكن تعرفه.

اسم «دو بارو» اسم مناسب. في هذه الحالة لن يكون اسم المعجب لا شارل ديدييه ولا كريستوف دافيد، إذ إن حرف «د» يمثل الجزء «دو»، ومن ثمة فإن «دو بارو» لن يكون له إلا اسم مؤلَّفٍ من كلمة واحدة: «سيريل دو بارو»، أو بالأحرى شارل. وتخيلت عائلة من الأرستقراطيين المفلسين. عائلة فخورة بلقبها الأرستقراطي بشكل مضحك. وتمثلت «شارل دو بارو» عند الكونتوار مظهرا

عدم اكتراثه بها، وقالت في نفسها إن هذا اللقب يناسبه، ويتطابق مع سلوكه المقرف.

بعد ذلك بوقت قصير كانت تذرع الشارع برفقة جان مارك، فلمحت «دو بارو» يسير في الاتجاه المعاكس. كانت تضع في عنقها عقد لؤلؤ أحمر أهداها إياه جان مارك. وبما أنها كانت تجد لون اللآلئ صارخا، لذلك لم تكن تلبسها إلا نادرا (وتنبهت إلى أنها إنما ارتدتها لأن «دو بارو» وجدها جميلة). قد يعتقد (وهو مصيب في ذلك) أنها لبست العقد بسببه ولأجله. نظر إليها نظرة خاطفة، ونظرت إليه بدورها، ولما فكرت في اللآلئ، احمرّت. احمرت حتى نهديها وكانت واثقة من أنه لاحظ ذلك. ولكنهما تجاوزاه وأصبح بعيدا عنهما، وسألها جان مارك مندهشا: «لقد احمررت، ما بك؟ ماذا وقع؟»

اندهشت هي أيضا؛ لِمَ احمرّت؟ أمن خجلٍ لأنها أولت هذا الرجل اهتماما أكثر مما ينبغي؟ لكن الانتباه الذي أولته لا يتعدى فضولا تافها! يا الهي، لماذا صارت تحمرّ كثيرا وبسهولة في هذه الفترة الأخيرة كما لو كانت فتاة مراهقة!

في مراهقتها كانت فعلا تحمَرُّ كثيرا. كانت في بداية المسيرة الفيزيزلوجية للمرأة، وصار جسدها شيئا مربكا، يشعرها بالخجل. ولما رشدت، نسيت الاحمرار. ثم جاءت هبات الحرارة لتعلن نهاية المسيرة، وعاد جسدها يشعرها بالخجل من جديد. لما استيقظ الحياء فيها، تعلمت الاحمرار ثانية.

24

توالت الرسائل، وصارت قدرة شانطال على تجاهلها تنفد بالتدريج. كانت رسائل ذكية، محتشمة، لا تفاهة فيها ولا إزعاج. لم يكن مراسلها يريد شيئا، لم يطلب منها شيئا، ولم يلحّ على شيء. كانت له حكمة (أو خبث) ترك شخصيته وحياته ومشاعره ورغباته في الظل. كان جاسوسا بالفعل، لا يكتب إلا عنها. ولم تكن رسائله رسائل إغواء بل رسائل إعجاب. وحتى إذا كانت تتضمن إغواء، فقد تمّ تصوره كمسار طويل. ومع ذلك، كانت الرسالة التي وصلتها

أخيرا أكثر جسارة: «اختفيت عن بصري لثلاثة أيام، وعندما رأيتك من جديد، فتنتني هيئتك الرشيقة، التواقة للأعالي. كنت تشبهين ألسنة النار التي تتراقص وتتعالى لكي تثبت وجودها. كنت تمشين بقوامك الممشوق، الذي بدا أطول من أي وقت مضى، وأنت محاطة بألسنة لهب مرحة، باخوسية، مسكرة، متوحشة. بينما كنت أفكر فيك، ألقيتُ على جسدك العاري معطفا قدّ من لهب. غلّفت جسدك الأبيض بمعطف كردينال قرمزي. وما إن تدثرت به حتى بعثتُ بك إلى غرفة حمراء، على سرير أحمر، يا كردينالتي الحمراء، الكردينالة الكاملة الجمال!»

وما هي إلا أيام حتى اشترت قميص نوم أحمر. كانت في المنزل، فنظرت إلى نفسها في المرآة. نظرت إلى نفسها من كل الزوايا، ورفعت ببطء حاشية قميصها وتخيلت قدّها أطول، وبشرتها أشد بياضا من أي وقت مضى.

عاد جان مارك، فاندهش لرؤيتها تمشي إليه بخطوة مغناجة ومغرية وهي ترتدي قميص نوم أحمر رائع التفصيل. أخذت تدور حوله، وتفلت منه، تتركه يقترب منها، لتهرب من جديد. ترك نفسه يقع في

اللعبة، وجعل يلاحقها في كل أرجاء الشقة. وسرعان ما تجسد الموقف الضارب في القدم، موقف امرأة يطاردها رجل، وسرّه ذلك. ومضت تركض حول الطاولة الكبيرة المستديرة وهي منتشية بصورة امرأة تركض أمام رجل يشتهيها، ثم لاذت بالسرير، ورفعت قميصها حتى العنق. أحبها ذلك اليوم بقوة جديدة مفاجئة، وتهيأ لها بغتة أن شخصا ما موجود معهما في الغرفة، يراقبهما بانتباه مجنون. رأت وجهه، كان وجه «شارل دو بارو» الذي فرض عليها قميصها الأحمر، وفرض عليها هذا الجماع. وما إن تخيلته حتى صرخت من اللذة.

هما الآن يتنفسان جنبا إلى جنب، وصورة من يتجسس عليها تثيرها؛ وهمست في أذن جان مارك شيئا عن المعطف القرمزي الذي دثرت به جسدها العاري لتعبر بذلك الكنيسة الحاشدة مثل كردينالة فاتنة. على وقع هذه الكلمات، أمسك بها من جديد، وضاجعها ثانية وهو يتأرجح على أمواج الفانتازيا التي ظلت تحكيها له.

ثم عمّ الهدوء، ولم يبق أمام أعينهما إلا القميص الأحمر الذي دعكه جسداهما في زاوية من السرير. وتحولت هذه البقعة الحمراء أمام عينيها نصف المغمضتين إلى مسكبة ورود، فتنشقت عبيرها

الواهي شبه المنسي، عبير الوردة الراغب في اختراق كلّ الرجال.

25

في صباح اليوم التالي، وكان صباح يوم سبت، فتحت النافذة فبدت لها السماء داكنة الزرقة. غمرتها السعادة والفرح، وقالت بعفوية لجان مارك الذي كان يتأهب للخروج:

- «ماذا تُراه بريتانيكوسي المسكين يفعل الآن؟

- لماذا؟

- أتُراه ما زال داعرا؟ أتراه ما زال على قيد الحياة؟

- لِمَ تذكرته؟

- لست أدري. تذكرته هكذا.»

غادر جان مارك وبقيت وحدها. دخلت إلى الحمّام، ثم اتجهت إلى خزانتها بغاية التجمّل. نظرت إلى الرفوف فلفت شيئ ما نظرها. على رفّ ملابسها الداخلية، كان وشاحها مطويا بعناية شديدة فوق

حزمة من الملابس، فتذكرت بأنها رمته هناك بإهمال. أرتّب أحد أغراضها؟ الخادمة لا تأتي سوى مرة واحدة في الأسبوع، ولا تهتم أبدا بخزانتها. اندهشت لقدرتها على الملاحظة وقالت في نفسها إن ذلك يرجع إلى تعوّدها خلال إقامتها، في ما مضى، في فيلا العطل. فهناك، ومن فرط ما كانت تشعر بأنها مراقبة، تعلمت كيف تتذكر تفاصيل الطريقة التي ترتب بها أغراضها، حتى تتمكن من اكتشاف أدنى عبث تقوم به يدٌ غريبة. وسرّها أن يكون ذلك الزمن قد ولّى، ثم نظرت إلى نفسها برضى في مرآة وخرجت. نزلت إلى الطابق السفلي حيث وجدت رسالة تنتظرها في صندوق البريد. وضعتها في حقيبتها وفكرت في المكان الذي ستقرأها فيه. انزوت في حديقة عامة صغيرة، وجلست تحت الأغصان الخريفية الكبيرة لشجرة زيزفون مصفرّة، تعانقها أشعة الشمس.

«... يجعلني وقع كعب حذائك على الرصيف أفكر في الدروب التي لم أقطعها والتي تتفرع مثل أغصان شجرة. لقد أيقظت فيّ هوس شبابي الأول: عندما كنت أتصور الحياة أمامي مثل شجرة. كنت أسميها يومئذ شجرة الاحتمالات. والحياة لا تُرى بهذا الشكل إلا لفترة قصيرة.

ثم لا تلبث أن تتراءى لنا مثل طريق مفروضة علينا إلى الأبد، مثل نفق لا نستطيع الخروج منه. ومع ذلك، يبقى خيال الشجرة القديم فينا على شكل حنين لا يزول. لقد ذكّرتني بهذه الشجرة، لذا أودّ أن أنقل إليك صورتها، أن أجعلك تسمعين همسها الساحر.»

رفعت رأسها فرأت أغصان الزيزفون تمتد فوقها مثل سقف ذهبي مرصّع بالعصافير. كما لو كانت نفس الشجرة التي تتحدث الرسالة عنها. وامتزجت الشجرة الاستعارية في ذهنها بالاستعارة القديمة للوردة عندها. كان عليها أن تعود إلى المنزل. فرفعت عينيها مرة أخرى باتجاه الزيزفونة في إشارة وداع، ومضت.

في الحقيقة لم تجلب لها وردة مراهقتها الأسطورية مغامرات كثيرة، ولم تذكّرها بأي موقف محسوس باستثناء الذكرى المضحكة لذلك الإنجليزي الذي كان يكبرها كثيرا، والذي تغزل بها لمدة نصف ساعة عندما زار الوكالة قبل عشر سنوات. ولم تعلم بشهرته كزير نساء متهتك إلا لاحقا. لم يترتب عن هذا اللقاء شيء سوى أنه صار موضوع مزاح مع جان مارك (وهو من لقّبه بريتانيكوس)، ونبهها لبعض الكلمات التي ظلت لا تبالي بها حتّى تلك اللحظة:

لفظة «حفلة ماجنة» على سبيل المثال، وكذا كلمة أنجلترا، توحي لها، بخلاف الآخرين، بمكان المتعة والرذيلة.

وفي طريق عودتها، كانت ما تزال تسمع ضجيج العصافير على شجرة الزيزفون، وتري العجوز الانكليزي الداعر، وتقدمت في ضباب هاتين الصورتين بخطى كسلى حتى دنت من الشارع حيث تسكن؛ وهناك على بعد خمسين مترا أمامها، رُصّت طاولات الحانة على الرصيف، وقد جلس في إحداها مراسلها الشاب بمفرده، بلا كتاب ولا صحيفة، لا يفعل شيئا، وأمامه كأس نبيذ أحمر، وهو ينظر الى الفراغ وعلى محياه تعبير كسل سعيد يتجاوب مع كسل شانطال. شرع قلبها يخفق. لقد تمّ ترتيب كل هذا بطريقة شيطانية! كيف أمكنه التنبؤ بمصادفتها مباشرة بعد قراءتها لرسالته؟ واقتربت منه، من المتلصص على حياتها الخاصة وقد داهمها الارتباك كما لو كانت تسير عارية تحت معطف أحمر. لم تكن تبعد عنه إلا بضع خطوات، وكانت تنتظر أن يناديها. ماذا ستفعل عندئذ؟ لم تتمنّ قط هذا اللقاء! لكن لا تستطيع أن تنجو بنفسها بأن تهرب مثل فتاة خائفة. تباطأت خطواتها، وحاولت أن تتحاشى النظر إليه (يا الهي، إنها تتصرف تماما

مثل فتاة صغيرة، أيعني ذلك أنها شاخت كثيرا؟) لكنه، ويا للغرابة، ظل جالسا أمام كأسه بلامبالاة، ناظرا إلى الفراغ وكأنه لا يراها.

صارت بعيدة عنه، وواصلت سيرها نحو المنزل. ألم يجسر «دو بارو» على التحدث إليها؟ أم أنه تمالك نفسه؟ ولكن عدم اكتراثه كان من الصدق بحيث لم تستطع شانطال أن تشك في أمره: لقد أخطأت، أخطأت بشكل مضحك.

26

في المساء، رافقت جان مارك إلى المطعم. كان يجلس الى الطاولة المجاورة لهما رجل وامرأة مستغرقان في صمت لا نهائي. ليس من الهيّن تدبير الصمت تحت أنظار الآخرين. فإلى أي وجهة سيصوّبان نظرهما؟ سيكون من المضحك النظر إلى عيون بعضهما وهما صامتان. أينظران إلى السقف؟ سيبدو ذلك كما لو كان استعراضا لبُكمهما. أيراقبان الطاولات المحيطة بهما؟ في هذه الحالة قد تلتقي نظراتهما بنظرات تتسلى بصمتهما، وسيكون الأمر أفظع.

قال جان مارك لشانطال: «اسمعي، لا يعني الأمر أنهما يكرهان

بعضهما، أو أن اللامبالاة عوّضت الحب. لا يمكن قياس العاطفة القائمة بين شخصين بكمّ الكلمات التي يتبادلانها. كل ما في الأمر أنهما خاليَيْ الذهن. فقد تكون اللياقة هي التي دفعتهما إلى الصمت، بما أنهما لا يجدان ما يقولانه، خلافا لعمّتي التي تقطن بمنطقة «بيريغور». كلّما ألتقيها، تتحدث بلا توقف. حاولت فهم طريقة ثرثرتها، فوجدت أن كلامها يعادل ضعف ما ترى وتفعل. تقول إنها استيقظت صباحا، ولم تتناول في وجبة الإفطار غير القهوة السوداء، ثم خرج زوجها بعد ذلك للنزهة. تخيّل يا جان مارك، عندما عاد شاهد التلفزة، تخيّل! تنقّل بين القنوات إلى أن شعر بالملل، فتصفّح بعض الكتب. هكذا -وهذه عبارتها- يقضي وقته... أتعلمين يا شانطال، أعشق كثيرا هذه الجمل البسيطة العادية الشبيهة بحلّ لغز غامض. إن قولها «يقضي وقته» جملة أساسية. ذلك أن مشكلتهم تكمن في الزمن، في تزجية الوقت، أي في أن يمضي الوقت من تلقاء نفسه من دون جهد، ومن دون أن يضطروا لعبوره مثل راجل أنهكه المشي. لهذا السبب تتكلم خالتي، لأن الكلمات التي تنطق تحرّك الزمن خفية. أما إن ظل فمها مغلقا، يتجمد الزمن، ويخرج من عتمته

هائلا ثقيلا، فتجزع المسكينة وتسعى -من فرط رعبها- للبحث عمّن يَقبَل سماع حديثها عن ابنتها التي تعاني هموم إصابة ابنها بالإسهال، أجل يا جان مارك، بالإسهال، بالإسهال. زارت طبيبا، أنت لا تعرفه، يقطن غير بعيد عنّا، نعرفه من سنوات، نعم يا جان مارك، من سنوات، فهو من عالجني أنا أيضا لما أصابني الزكام في الشتاء، أتذكُر يا جان مارك، لقد انتابتني حمى رهيبة...»

ابتسمت شانطال، فمضى جان مارك يحكي ذكرى أخرى: «لم أكن قد جاوزت الرابعة عشرة من عمري، وكان جدي -ليس النجار، بل جدي الآخر- يحتضر. طيلة أيام كان يُصدر صوتا لا شبيه له، لم يكن أنينا، فهو لم يكن يتألم؛ ولم يكن ذلك الصوت بديلاً عن كلمات تعذَّرَ عليه النطق بها؛ كلا، فهو لم يفقد القدرة على الكلام. بكل بساطة لم يكن لديه ما يقول، وما يَنقل الى الآخرين؛ لم يكن عنده خطاب ملموس، بل لم يكن يجد حتى من يتحدث إليه. لقد كان وحيدا مع الصوت الذي يُصدِرُه، صوت واحد عبارة عن آآآآ لا تنقطع إلا عندما يستنشق الهواء. كنت أنظر إليه بذهول، ولم أنس ذلك أبدا. فرغم صغر سني، خيّل إلي أنني فهمت: إنه الوجود بما هو، في

مواجهة الزمن بما هو، وأدركت أن هذه المواجهة اسمها الملل. فقد كان جدي يعبِّر عن الملل بهذا الصوت، بهذه الـ آآآ اللانهائية، لأن بدون هذه الـ آآآ كان سيسحقه الزمن؛ ولم يكن بوسعه في مواجهة الزمن غير التلويح بهذا السلاح، بهذه الـ آآآ التي لا تنتهي.

-أتقصد أنه كان يحتضر ويشعر بالملل من ذلك؟

-هذا ما أقصد.»

تحدثا عن الموت وعن الملل، وشربا البوردو. ضحكا وتسليا. كانا سعيدين.

ثم عاد جان مارك إلى فكرته: «قلت إن كميّة الملل، إنْ كان الملل قابلا للقياس، هي أكبر اليوم عمّا كانت في الماضي، لأن المهن آنذاك لم تكن تُتخذ - في جانب كبير منها على الأقل- دون ارتباط عاطفي: الفلاحون عاشقون لأرضهم، وجدّي ساحر الطاولات الجميلة، والأسكافيون يعرفون أقدام كل سكان القرية معرفة جيدة، وعمّال الغابات، والبستانيون، بل أفترض أنّه حتى الجنود كانوا يلقون حتفهم بشغف. لم يكن معنى الحياة يوضع موضع تساؤل، بل كان يرافقهم بشكل عادي في ورشاتهم وفي حقولهم. فقد اكتسبت

كل مهنة ذهنيتها وطريقتها الخاصة في الوجود. كان الطبيب يفكر بطريقة مخالفة لطريقة المزارع، وكان للجندي سلوك مخالف لسلوك المعلم. أما اليوم، فنحن جميعا متشابهون، يجمعنا عدم الاكتراث الشامل بعملنا، وهو عدم اكتراث تحوّل إلى هوس، هو الهوس الجماعي الأعظم الوحيد في عصرنا.»

قالت شانطال: «ومع ذلك، قل لي ماذا فعلت أنت نفسك عندما كنت مدرب تزلج، وعندما كتبت في المجلات عن الهندسة الداخلية، وبعدها عن الطب، أو حين اشتغلت مصمما في ورشة نجارة...»

-...، أجل، أحببت ذلك كثيرا، لكنه لم يمض على ما يرام...

-... أو لمّا كنت عاطلا لا تفعل شيئا، لا شك أنك شعرت بالملل أنت أيضا!

-كل شيء تغير لما تعرفت عليك، ليس لأن أعمالي الصغيرة غدت أكثر إثارة، بل لأنني أصبحت أحوّل كل ما يجري حولي إلى مادة لأحاديثنا.

-بإمكاننا الحديث عن أشياء أخرى!

-كائنان يتحابّان، وحيدان، منعزلان عن العالم، إنه أمر في منتهى

الروعة. ولكن كيف لهما أن يغذّيا خلوتهما؟ فهما في حاجة إلى العالم، مهما كانت حقارته، لكي يستمر الحديث بينهما.

-بإمكانهما أن يصمتا.

قال جان مارك ضاحكا: مثل هذين الجالسين الى الطاولة المجاورة؟ كلا، ليس هناك حب يقوى على مقاومة الصمت.»

27

انحنى النادل على طاولتهما لوضع الحلوى فانتقل جان مارك إلى موضوع آخر: «أتعرفين ذاك المتسوّل الذي يظهر بين حين وآخر في شارعنا؟

-لا أعرفه.

-بل تعرفينه، لا شك أنه أثار انتباهك، ذاك الرجل الأربعيني الذي يشبه موظفا أو مدرساً ثانوياً، والذي يمدّ يده بارتباك مستجديا بضع فرنكات. ألا تذكرينه؟

-لا.

-بل تذكرينه. فهو يقف دائما تحت شجرة الجميّز، الشجرة

الوحيدة التي تُركت في الشارع، والتي تُري أغصانها من النافذة.»

وسرعان ما ذكّرتها به صورة الجمّيز: «آه، نعم! أذكره!»

-اجتاحتني رغبة شديدة في التحدث إليه، في معرفة من يكون، لكن لا يمكنك أن تتصوّري كم وجدت الأمر صعبا.»

لم تسمع شانطال الكلمات الأخيرة التي تلفّظ بها جان مارك، كانت تتصور الشحاذ، ذلك الرجل الواقف تحت الشجرة، ذا الملامح المطموسة، والمثير للانتباه بتكتمه. فهو شديد العناية بملبسه على الدوام إلى درجة يتعذر معها على المارة إدراك أنه يتسوَّل. فَقبْل بضعة أشهر طلب منها الصدقة بأدب جم.

واسترسل جان مارك: «من الصعب ذلك، لأن سؤالي سيثير ريبته. لن يفهم سبب سعيي للتحدث إليه. هل بداعي الفضول؟ وهو أمر سيخيفه. أم بداعي الشفقة؟ فسيجد ذلك مهينا. أبِمنْحه شيئا؟ ولكن ما عساي أمنحه؟ حاولت أن أتقمّص شخصيته حتى أدرك ما عساه ينتظر من الآخرين، لكنني لم أصل إلى شيء.»

تخيّلتْه تحت الشجرة، وهي الشجرة التي نبّهتها فجأة، في رمشة عين، إلى أنه هو كاتب الرسائل. فضحته صورة الشجرة التي يقف

تحتها، والتي تملأ مخيلته. وتلاحقت أفكارها بسرعة، لا أحد سواه؛ هو العاطل الذي لديه متسع من الوقت، والذي بإمكانه أن يضع خفية خطابا في صندوق رسائلها؛ لا أحد غيره، هو المتنكر في عدميته من يستطيع أن يراقبها في حياتها من دون أن تتفطن له.

وتابع جان مارك: «يمكن أن أطلب منه مساعدتي في ترتيب قبو المنزل. سيرفض، ليس بسبب الكسل، بل لأنه لا يملك ملابس العمل، ولأنه مضطر للحفاظ على نظافة هندامه. ومع ذلك، فأنا راغب جدا في التحدث إليه لأنه أناي الأخرى!»

قالت شانطال التي لم تكن تنصت لجان مارك: «كيف يمكن أن تكون حياته الجنسية يا ترى؟»

فردّ جان مارك ضاحكا: «حياته الجنسية؟ منعدمة! منعدمة! لا تعدو أن تكون أحلاما!»

أحلام، قالت شانطال في نفسها، فهي ليست إذن سوى أحلام رجل تعيس. لماذا اختارها هي بالضبط؟

وعاد جان مارك لفكرته الراسخة: «أودّ أن أقول له يوما: هلا جئت عندي لنشرب فنجان قهوة، فأنت هو أناي الأخرى. إنك

تعيش المصير الذي أفلتّ منه بالصدفة».

-كُفّ عن هذا الهراء، قالت شانطال. لم تكن يوما مهددا بمثل هذا المصير.

-لن أنسى أبدا اليوم الذي غادرت فيه الكلية وأدركت أنني فوّتُ كل القطارات.

-أعلم ذلك، قالت شانطال التي سبق أن سمعت هذه الحكاية مرات ومرات. ولكن كيف لك أن تقارن فشلك الصغير بمأساة رجل ينتظر أن يضع أحد المارة فرنكا في راحته؟

-لم يكن الفشل في انقطاعي عن الدراسة. ما تخليت عنه آنذاك هو طموحاتي. وجدت نفسي فجأة بلا طموح. وما كدت أتخلى عن طموحي حتى ألفيت نفسي على هامش العالم؛ والأدهى من ذلك أنه لم تكن لدي أي رغبة في أن أجد نفسي في مكان غير ذاك. كما أنه لم يكن عندي أيّ توقٍ إلى أن أبتعد عن البؤس. لكن، إذا لم يكن لك طموح، وإذا لم تطمح للنجاح، ونيل اعتراف الآخرين، فقد وضعت نفسك على حافة الهاوية. الواقع أنني اطمأنيت للإقامة هناك. وهذا لا يمنع كوني أقمت على حافة الهاوية. فأنا إذن، وبلا مبالغة، أضع

نفسي إلى جانب هذا الشحاذ، وليس إلى جانب مالك هذا المطعم الفاخر الذي يعجبني كثيرا.»

قالت شانطال في نفسها: «لقد أصبحتُ معشوقة هذا المتسول. إنه شرف مضحك. ثم استدركت: ولماذا ستكون شهوة شحاذ أقل احتراما من شهوة رجل أعمال؟ إن كون شهوته بلا أمل يُكسبها قيمة لا تقدر بثمن: فهي حرة وصادقة.

ثم راودتها فكرة أخرى: في تلك الليلة حين كانت ترتدي قميص النوم الأحمر وضاجعها جان مارك، لم يكن الشخص الثالث الذي كان يراقبهما في الغرفة هو رجل الحانة الشاب، بل هذا الشحاذ! هو فعلا من ألقى على كتفيها الرداء الأحمر وجعل منها كردينالة فاجرة! بدت لها هذه الفكرة لحظةً قاسية ومزعجة، لكن روحها المرحة سرعان ما تغلبت على ذلك الشعور، فضحكت في أعماقها بصمت. تصورت ذلك الرجل الخجول بربطة عنقه المثيرة ملتصقا بجدار غرفتهما وقد مدّ يده ناظرا إليهما بإمعان وفجور وهما يهتزان أمامه. وتخيلت أنها بعد الجماع، قامت من السرير عارية تنضح عرقا، فتناولت حقيبتها من فوق الطاولة، وبحثت فيها عن قطع نقود

وضعتها في يده. ونجحت بصعوبة في مغالبة الضحك.

28

ظل جان مارك يحدق في شانطال وقد أشرق وجهها فجأة بابتهاج خفي. لم يرغب في سؤالها عن سبب ذلك، واكتفى بالتمتع بالنظر إليها. وبينما كانت هي تائهة في تصوراتها الغريبة، قال في نفسه إن شانطال هي صلته العاطفية الوحيدة بالعالم. فهو يعلم أن الطريقة الوحيدة للشعور ببؤس وألم المعتقلين والمسحوقين والجياع، لو حُدِّث عنهم، هي أن يتصور شانطال مكانهم. ولو حُدِّث عن نساء مغتَصَبات في حروب أهلية، فإنه يرى شانطال بينهن. فهي الوحيدة، وليس غيرها، من يخلصه من اللامبالاة. وهو لا يستطيع أن يشعر بالشفقة والتعاطف إلا عبرها.

كان بوده أن يبوح لها بذلك لولا خجله من المواقف الدرامية، لا سيما وأن فكرة أخرى مناقضة فاجأته: ماذا لو فقد هذا الكائن الذي

يربطه ببني البشر؟ ليس موتها هو الذي خطر بباله، بل شيئاً أدقّ، مستعصياً على الإدراك، صار يطارده في الأيام الأخيرة: ففي يوم من الأيام لن يتعرف عليها، سينتبه إلى أنها ليست شانطال التي عاش معها، بل هي تلك المرأة التي ظنّ أنها هي على الشاطئ؛ في يوم من الأيام سيكتشف أن اليقين الذي كانت شانطال تمثّله بالنسبة إليه لم يكن سوى وهم، فلا يعود يكترث بها مثلما لا يكترث بالآخرين.

تُمسك بيده: «ماذا بك؟ تبدو حزينا مرة أخرى. لاحظت في الأيام الأخيرة أنك حزين. ماذا أصابك؟

-لا شيء، لا شيء على الإطلاق.

-بل،أخبرني، ما الذي يحزنك في هذه اللحظة؟

-تخيّلت أنك شخص آخر.

-كيف؟

-أنك صرت غير ما أتصورك، وأنني أخطأت في هويتك.

-لا أفهم.»

كان يرى حزمة من حمالات الصدر، تلة حزينة من حمالات الصدر، تلة سخيفة. ولم يلبث أن لاح له ثانية عبر هذه الرؤية وجه

شانطال الحقيقي وهي جالسة قبالته، وأحس بيدها تلامس يده، وتلاشى من ذهنه بسرعة شعور أن الجالس أمامه غريب أو خائن، فتبسم قائلا: «انسي كل هذا، لم أقل شيئا.»

29

ظهره مسنود إلى جدار الغرفة التي كانا يمارسان فيها الجنس، ويده ممدودة، وعيناه مثبتتان بلهفة على جسديهما العاريين: هكذا تخيلته خلال العشاء بالمطعم. أما الآن فظهره ملتصق بالشجرة، ويده الخرقاء ممدودة إلى المارة. في البداية أرادت أن تتظاهر بعدم الانتباه لوجوده، ثم توقفت أمامه عمدا وإراديا كمن يريد أن يحسم موقفا مربكا. ومن دون أن يرفع عينيه، ظل يردد عبارته: «أرجوكم ساعدوني.»

حدقت فيه: إنه نظيف بشكل مقلق، يرتدي ربطة عنق، شعره الذي علاه الشّيب ممشّط إلى الخلف. أهو جميل؟ أهو قبيح؟ إن وضعه

يجعله فوق الجمال والقبح. كانت تود أن تقول له شيئا، لكنها لم تجد ما تقول. وبما أن ارتباكها يمنعها من الكلام، فقد فتحت حقيبتها باحثة عن قطع نقود معدنية، لكنها لم تجد سوى بضع سنتيمات. كان مسمّرا أمامها بجمود وراحته المتوترة البغيضة ممدودة نحوها، فضاعف جموده ثقل الصمت. بدا لها من المستحيل أن تقول له الآن أعتذر ليس معي قطع نقود، فقررت من ثم أن تمنحه ورقة نقدية، لكنها لم تجد سوى ورقة من فئة مائتي فرنك، فقدرت أنها صدقة مبالغ فيها مما جعل الحمرة تعلو وجنتيها: تهيأ لها أنها تعيل عاشقا خياليا، وتكافئه حتى يبعث لها رسائل غرامية. لما شعر الشحاذ بورقة نقدية في يده عوض قطعة معدن باردة، رفع رأسه، فنظرت إلى عينيه المذهولتين. كانت نظرته مفزوعة. أما هي فشعرت بالانزعاج، فابتعدت مسرعة.

لما وضعت الورقة في يده، كانت ما تزال تظن أنها تقدمها لعاشقها. ولم يعد لها صفاء ذهنها قليلا إلا عندما ابتعدت: لم يظهر في عينيه أي أثر للتواطؤ، أي إشارة خفية إلى مغامرة مشتركة، لم يظهر فيهما غير ذهول صادق وشامل، مفاجأة مفزوعة لرجل فقير.

وفجأة اتضح لها كل شيء: اعتبار هذا الرجل هو كاتب الرسائل هو عين العبث.

انتابها غضب من نفسها. لماذا تولي تفاهة كهذه كل هذه الأهمية؟ لماذا تسمح لنفسها بالمشاركة، حتى في الخيال، في مغامرة دبّرها عاطل أرهقه الملل؟ وفجأة بدت لها حزمة الرسائل المدسوسة تحت حاملات الصدر أمرا لا يطاق. وتخيلت شخصا يراقبها من مكان سري ويتفحّص كل ما تفعل، لكن من دون أن يدرك فيم تفكر. ولا يسعه -انطلاقا مما يرى إلا أن يعدّها امرأة متعطشة للرجال، بل أدهى من ذلك، امرأة عاطفية وبليدة تحتفظ بكل وثائقها الغرامية وتحلم بها كما لو كانت أشياء مقدسة.

وبما أنها لم تعد تطيق نظرات مراقبها الخفي الساخرة، فإنها ما إن دخلت المنزل، حتى توجهت إلى الخزانة. نظرت إلى كومة حمّالات صدرها، فراعها شيء. بالطبع، لقد لا حظته منذ الأمس: فوشاحها لم يكن مطويا كما اعتادت طيه، إنّما مزاجها الذي كان رائقا سرعان ما أنساها ذلك. لكن هذه المرة لن تتجاهل أثر هذه اليد الغريبة. آه، الأمر في منتهى الجلاء، لقد قرأ الرسائل! فهو يراقبها

ويتجسس عليها!

تملكّها غضب على أمور عدّة: على الرجل المجهول الذي يزعجها برسائله من دون أن يطلب منها المعذرة، وعلى نفسها التي تحتفظ ببلادة بتلك الرسائل مخبأة، ثم على جان مارك الذي يراقبها. سحبت رزمة الرسائل (كم مرة فعلت ذلك من قبل!) وتوجهت إلى المرحاض؛ وهناك، قبل تمزيقها ورميها في دورة المياه، نظرت إليها للمرة الأخيرة بارتياب، فوجدت كتابتها مشبوهة. تفحصتها بحذر: لقد كتبت كلها بنفس الحبر، وبحروف كبيرة منحرفة قليلا إلى اليسار، لكنها تختلف من حرف لآخر كما لو أن كاتبها فشل في المحافظة على وحدة الخط. وبدت لها هذه الملاحظة على قدر كبير من الغرابة حتى إنها، في هذه المرة أيضا، أحجمت عن تمزيق الرسائل، وجلست إلى الطاولة لإعادة قراءتها. توقفت عند الرسالة الثانية التي تصفها عندما ذهبت إلى المصبغة: كيف حدث ذلك إذن؟ كانت برفقة جان مارك، وهو الذي يحمل الحقيبة. وفي الداخل أيضا، هو من مازح صاحبة المصبغة، ومراسلها يشير إلى هذا المزاح في رسالته، فكيف استطاع سماعه؟ لا سيما أنه يدَّعي رؤيتها من الشارع. ولكن كيف

تُراقب من دون أن تنتبه لمراقبها؟ ليس دوبارو، ولا الشحاذ؛ شخص واحد كان بإمكانه ذلك: إنه من كان معه في المصبغة. وعبارة: «هناك شيء مصطنع مضاف إلى حياتك» الذي اعتبرته تهجما أخرق على جان مارك، لم يكن في الحقيقة سوى مغازلة نرجسية صادرة عن جان مارك نفسه. أجل، لقد فضحته نرجسيته، تلك النرجسية الشاكية التي تريد أن تقول لها: بمجرد ما تصادفين رجلا في طريقك، يصبح شيئا زائدا مُقْحَماً في حياتك. ثم تذكرت تلك الجملة الغريبة التي قالها في نهاية عشائهما بالمطعم. قال لها إنه ربما أخطأ حول هويتها، وقد تكون في حقيقتها شخصا آخر! وكتب لها في الرسالة الأولى: «لستُ سوى متلصِّص عليك». ليس غيره إذاً هذا الجاسوس إذن غيره. فهو يختبرها، يجربها لكي يثبت لنفسه أنها ليست كما يعتقد! يكتب لها رسائل مجهولة ويرصد سلوكها بعد ذلك، يراقب حتى خزانتها وحمّالات صدرها!

لكن، لماذا يفعل ذلك؟

ليس هناك سوى إجابة واحدة: يريد أن يورِّطها.

ولكن، لماذا يورِّطها؟

ليتخلص منها. بطبيعة الحال فهو الأصغر سنا، وهي أدركتها الشيخوخة. فبالرغم من إخفائها -عبثا- هبات الحرارة التي تنتابها، فقد شاخت، وهو أمر باد للعيان. فما دام لا يستطيع أن يقول لها: لقد شخت وأنا ما أزال شابا، فهو يبحث عن ذريعة للتخلي عنها. إنه ألطف من أن يصارحها بذلك، وأكثر تهذيبا. لكن، ما إن يتأكد من أنها تخونه، أو مستعدة لخيانته، حتى يتركها بنفس السهولة ونفس البرود الذي ترك به صديقه القديم «ف». ولطالما أخافتها غرابة هذا البرود البهيج. لقد فهمت الآن أن خوفها كان نذيراً استباقيا.

30

لقد دُوّن احمرار شانطال في أوّل الكتاب الذهبي لحبهما. كانا قد التقيا لأول مرة بحضور عدد كبير من الأشخاص في قاعة تتوسطها طاولة طويلة مزينة بكؤوس الشامبانيا وأطباق الخبز المحمص واللحوم المجففة والجومبون. حدث ذلك في فندق جبلي وكان

حينها مدرب تزلج، ودُعي صدفة في إحدى الأمسيات لحضور ندوة كانت تختم بكوكتيل صغير. قدموه لها بسرعة وبشكل عابر بحيث لم يستطيعا حتى أن يذكر أحدهما اسم الآخر، ولم يتمكنا إلا من تبادل بعض العبارات بحضور الآخرين. وفي اليوم التالي عاد جان مارك إلى الفندق من دون دعوة من أحد، وذلك لمجرّد أن يراها، فما إن رأته حتى علاها الاحمرار. لم تحمّر وجنتاها فقط، بل احمرّ نحرها وما ظهر من صدرها. بدا احمرارها جميلا، وكان احمرارا بسببه ومن أجله هو، كما كان إعلانا منها عن الحب. هكذا سيتحكم هذا الاحمرار في كل ما سيلحق. وما هي إلا نصف ساعة حتى تيسّرت لهما الخلوة في ظلمة ممرّ طويل، ومن دون أن ينبسا بكلمة، تبادلا القُبَل باشتهاء.

وبما أنه لم يلحظ احمرارها لسنوات، فإن ذلك جعله يقتنع بكون احمرارها تلك الليلة كان استثنائيا، وظل يشعّ في ماضيهما مثل ياقوتة حمراء لا تقدّر بثمن. ثم قالت له ذات يوم بأن الرجال لم يعودوا يلتفتون إليها. واكتست تلك الكلمات التافهة في حد ذاتها أهمية بالغة بسبب الاحمرار الذي صاحبها. لم يكن بوسعه أن يصمّ أذنيه

عن لغة الألوان التي كانت لغة حبهما، تلك اللغة التي حين ارتبطت بالجملة التي تفوهت بها بدت له تعبّر عن أسى التقدم في العمر. لهذا السبب كتب لها متنكرا في صفة شخص غريب: «أتعقبك مثل جاسوس، أنت جميلة، جميلة جدا.»

عندما وضع الرسالة الأولى في صندوق الرسائل، لم يكن في نيته أن يبعث لها برسائل أخرى. لم تكن له خطة مرسومة، مثلما لم تكن له رؤية للمستقبل. كل ما كان يريده هو أن يُدخل البهجة إلى نفسها الآن، وفوراً، ويخلّصها من هذا الشعور المحبط الناتج عن كون الرجال لم يعودوا يلتفتون إليها. لم يحاول أن يتكهّن بردود فعلها. وحتى لو كان فكر في ذلك، كان سيفترض أنها ستطلعه على الرسالة قائلة: «انظر، رغم كل شيء، فالرجال لم ينسوني بعد!» وسيضيف هو -ببراءة المحب- إلى ثناء الرجل الغريب ثناء آخر. لكنها لم تكشف له عن شيء، وهكذا ظلت الحكاية مفتوحة دون نهاية. وفي اللاحق من الأيام، وجدها يائسة، تنهشها فكرة الموت، فاستمر في اللعبة وهو لا يدري شاء ذلك أم أبى.

وهو يكتب الرسالة الثانية، قال في نفسه: أصير سيرانو، ذلك

الرجل الذي ظل يناجي محبوبته متنكرا في رجل آخر، الرجل الذي تفجّرت فصاحته فجأة لمّا تحرر من اسمه. وهكذا أضاف في حاشية الرسالة هذا التوقيع: س.د.ب: سيرانو دي برجيراك.

ظل يتنكر في سيرانو. فلما ارتابت في إيمانه بجمالها، أشار في رسالته إلى جسدها، محاولا أن يذكر كل جزء منه: الوجه والأنف والعينان والنحر والساقان، وذلك حتى تعتدّ به من جديد. وقد سرّه أن أصبحت تلبس باستمتاع أكبر، وصارت أكثر ابتهاجا. لكن نجاحه كان بالمقابل يغيظه، ذلك أنها لم تكن تحب أن تلبس في عنقها اللآلئ الحمراء في ما مضى، حتى عندما كان يطلب منها ذلك، فهي إذن إنما تفعل ذلك خضوعا لشخص غيره.

لا يمكن أن يعيش سيرانو بدون غيرة، ذلك أنه يوم دخل على حين غرّة الى الغرفة التي كانت فيها شانطال منهمكة في تقليب أحد رفوف الخزانة، أدرك ارتباكها الواضح. حدّثها حينها عن الجفن الذي ينظف العين متظاهرا بأنه لم يلحظ شيئا. ولم يفتح الخزانة إلا في اليوم التالي عندما كان وحيدا في المنزل حيث عثر على رسالتيه مدسوستين تحت حزمة حمّالات الصدر.

ظل يفكر وهو يتساءل عن سبب إخفائها الرسائل عنه، وبدا له الجواب بسيطا. فالرجل لا يكتب الرسالة للمرأة إلا لكي يهيئ المجال لمفاتحتها فيما بعد في أمر حبه، وليوقعها في شراكه. فإذا أخفت المرأة تلك الرسائل، فلأنها تريد بذلك أن تحمي اليوم، مغامرة الغد. وإذا احتفظت بها، فضلا عن ذلك، فلأنها مستعدة لاعتبار هذه المغامرة المستقبلية حبا.

ظل واقفا لفترة طويلة أمام الخزانة المفتوحة، وفيما بعد، كلما وضع رسالة جديدة في صندوق الرسائل، تأكد من أنها وُضعت في مكانها تحت حمّالات الصدر.

31

لو علمت شانطال بأن جان مارك يخونها، لتألّمت، بالرغم من أن ذلك ينسجم مع ما تنتظره منه. لكن تجسسه عليها، وامتحانه البوليسي لها لا يتوافقان في شيء مع ما كانت تعرفه

عنه. عندما تعارفا، لم يكن يريد أن يعلم أو يسمع شيئا عن حياتها السابقة. وسرعان ما اطمأنت لرفضه الراديكالي هذا. لم تكن تخفِ عنه شيئا، ولا تسكت إلا عما كان هو نفسه يكره سماعه. لذلك لم تجد أي داع يدعوه فجأة للتلصص عليها ومراقبتها. وتذكرت فجأة ما قاله عن زي الكاردينال القرمزي، الذي أصابها بالدوار، فشعرت بالخجل: كم كانت مستجيبة للصور التي كان يزرعها أحدهم في رأسها! لا بد أنها بدت في عينيه سخيفة! لقد وضعها في قفص كما لو كانت أرنبا، ومضى يراقب ردود أفعالها بمتعة وخبث.

وماذا لو أخطأت التقدير؟ ألم تخطئ مرتين حين ظنّت أنها كشفت مراسلها؟

بحثت عن بعض الرسائل التي بعث لها بها جان مارك سابقا، ومضت تقارنها برسائل س.د.ب. وجدت أن خط جان مارك مائل قليلا إلى اليمين، بحروف صغيرة، مقابل خط المراسل المجهول ذي الحروف الكبيرة المائلة إلى اليسار. غير أن هذا الفارق الواضح هو الذي كشف الخديعة. فمن يتعمد إخفاء خطه سيحاول أولا تغيير

حجم الحروف وجهة ميلانها. حاولت شانطال أن تقارن حروف الفاء والألف والواو في رسائل جان مارك ورسائل المجهول، فلاحظت أنه رغم تباين حجمها الجلي فإن رسمها يبدو متشابها. لكنها لما أمعنت في المقارنة، داخلها الشك. أوه، كلا، إنها ليست خبيرة في الخط، ولا تستطيع أن تبتّ في الأمر.

انتقت رسالة من رسائل جان مارك، وأخرى من رسائل المجهول، ووضعتهما في حقيبتها. ماذا عساها تفعل بالرسائل الأخرى؟ أتبحث لها عن مخبأ أفضل؟ لكن ما الفائدة؟ فجان مارك على علم بها، بل إنه يعرف حتى المكان الذي تضعها فيه. لا ينبغي إعطاؤه الانطباع بأنها تشعر بنفسها مراقبة. لذلك وضعتها في الخزانة في مكانها المعهود.

بعد ذلك قرعت جرس مكتب خبير في الخطوط، فاستقبلها شاب يرتدي سترة غامقة وقادها عبر ممر إلى مكتب فيه طاولة يجلس خلفها رجل آخر متين البنية، بقميص قصير الكمين. وبينما ظل الشاب واقفا يستند إلى الجدار في أقصى الغرفة، نهض الرجل المفتول العضلات ومدّ لها يده.

عاد إلى الجلوس، وجلست هي على كرسي قبالته، واضعة رسالة

جان مارك ورسالة س.د.ب على الطاولة. وبينما كانت تشرح بارتباك ما تريد، قال الرجل بنبرة فاترة: «أستطيع أن أقوم بتحليل سيكولوجي للرجل الذي تعرفينه، لكن من الصعب القيام بتحليل سيكولوجي لكتابة مزيفة.

-لست في حاجة إلى تحليل سيكولوجي. فسيكولوجية الرجل الذي كتب هذه الرسائل، إذا كان كما أتوقعه، أعرفها بما فيه الكفاية.

-ما تريدينه، حسبما ما فهمت، هو أن تتأكدي من أن من كتب هذه الرسالة -عشيقك أو زوجك- هو نفسه من قام في الرسالة الأخرى بتغيير خطه. تريدين إفحامه.

-ليس هذا ما أقصد تماما، أجابت مرتبكة.

-ليس هذا تماما، ولكن تقريبا؛ إلا أنني سيدتي خبير خط نفساني، ولست مخبرا خاصا، كما أنني لست عميلا للشرطة.

عمّ الصمت الغرفة الضيقة، ولا أحد من الرجلين كان يرغب في إنهائه، لأن لا أحد منهما أشفق من حالها.

أحست بموجة حرارة تجتاح جسمها، موجة عارمة عنيفة متدفقة، وعلت الحمرة كل جسدها، ومرة أخرى عبَرَتْ الكلمات التي خُطت

على معطف الكاردينال القرمزي ذهنها، ذلك أن جسمها صار الآن موشحا بمعطف فاخر قُدّ من لهب.

وأضاف: «لقد أخطأتِ العنوان، لس هذا مكتب وشاية.»

ما إن اخترقت كلمة «وشاية» سمعها حتى صار معطف اللهب معطفَ خجل. قامت لتستعيد رسائلها، لكن قبل أن تنجح في الإمساك بها، عبر الشاب الذي استقبلها عند المدخل إلى الجهة الأخرى من الطاولة، ووقف أمام الرجل المفتول العضلات، ومضى يتفرس الخطين بإمعان، وقال: «من المؤكد أنه الشخص نفسه»، ثم بادرها: «انظري حرف الطاء، وكذلك حرف الجيم!»

وفجأة تذكرته: هذا الشاب هو نادل مقهى المدينة النورماندية حيث كانت تنتظر جان مارك. وبما أنها عرفته، فقد سمعت في أعماق جسدها الملتهب صوتها وهو يدوّي: كل هذا ليس صحيحا! أنا أهذي! أنا أهذي! لا يمكن أن يكون هذا صحيحا.

رفع الشاب عينيه، ونظر إليها (كما لو كان يتعمّد إظهار وجهه حتى تتعرف عليه جيدا) ثم قال لها بابتسامة تمزج بين اللطف والخبث: «أجل، الكتابة نفسها. اكتفى كاتبها فقط بتكبير الحروف

وإمالتها إلى اليسار.»

ما عادت تطيق سماع شيء، فكلمة «وشاية» أزاحت كل الكلمات الأخرى. لقد شعرت بنفسها كما لو كانت امرأة تشي بحبيبها للشرطة، مستدلة على دعواها بشعرة عثرت عليها في فراش الخيانة. وما إن استرجعت رسائلها حتى استدارت بصمت لتذهب في حال سبيلها. ومرة أخرى تزحزح الشاب من مكانه، ووقف بجوار الباب، ثم فتحه لها، كانت على بعد ست خطوات منه، ورغم قصر هذه المسافة فقد بدت لها لا نهائية. شعرت بنفسها حمراء ملتهبة تنضح عرقا، وكان الرجل أمامها، بشبابه المتغطرس، يحدج جسدها المسكين بنظرات وقحة. جسدها المسكين! شعرت بهذا الجسد يشيخ بسرعة، في رمشة عين، وفي وضح النهار.

وحين وقف في طريقها إلى الباب مبتسما ابتسامته المتزلفة، تهيأ لها أنها تعيش من جديد الموقف الذي عاشته في مقهى شاطئ النورماندي، فخشيت ألا تتمكن من الخروج. انتظرت أن يلعب معها اللعبة نفسها، لكنه ظل واقفا بجوار باب المكتب بأدب، وتركها تغادر. اجتازت الممر المفضي إلى الباب الخارجي بخطى امرأة عجوز

مرتابة (وأحست بنظرته تثقل ظهرها المبتل)، وما إن وجدت نفسها أخيرا على الدرج حتى شعرت بنفسها كمن أفلت من خطر محدق.

32

يوم كانا يمشيان معا صامتين، ولا يريان حولهما إلا بعض المارّة المجهولين، لماذا احمرّت فجأة؟ كان أمرا يتعذر تفسيره: فمن شدة ارتباكه، لم يستطع التحكم في ردّ فعله: «علتك الحمرة! ما سبب احمرارك؟». لم تجبه، وشعر بالقلق من ملاحظة أن أمرا ما يجري بداخلها لا يعرف عنه شيئا.

وكما لو أن هذه الحادثة قد أعادت من جديد إشعال لون حبّه الذهبي، فقد كتب لها رسالة حول معطف الكاردينال الأحمر. هكذا نجح في تحقيق أكبر إنجازاته وهو يتقمّص دور سيرانو: لقد فتنها. كان فخورا برسالته وبإغوائها، لكنه كان بالمقابل يشعر بغيرة لم يشعر بمثلها قط. لقد خلق شبح رجل، ومن دون أن يقصد، وجد

نفسه يختبر شانطال ويقيس مدى استجابتها لإغواء رجل غيره.

لم تكن غيرته تشبه تلك التي عرفها في شبابه عندما كانت المخيلة تؤجج الاستيهامات الجنسية المعذّبة. ففي هذه المرة كانت أقل إيلاما، ولكنها أكثر تدميرا: فقد كانت تحوّل المرأة المعشوقة ببطء إلى طيف امرأة معشوقة. وبما أنها لم تعد كائنا موثوقا بالنسبة إليه، ما عادت هناك نقطة ثابتة في هذه الفوضى المجردة من القيم التي هي العالم. هكذا، مقابل شانطال المتبدلة الجوهر (أو الفاقدة لجوهرها)، اعترته لا مبالاة غريبة وسوداوية، وهي ليست لا مبالاة بها هي فحسب، بل لا مبالاة حيال كل شيء. فإذا تحولت شانطال إلى شبح، لقيت حياة جان مارك بكاملها هي أيضا المصير نفسه.

وفي الأخير، كان حبّه محقّا في غيرته وشكوكه. وقف أمام الخزانة المفتوحة وعيناه تحدقان في حمّالات الصدر، وفجأة، ومن دون أن يدرك كيف حدث ذلك، شعر بالانفعال، الانفعال من سلوك النساء هذا، الضارب في القدم، المتمثل في إخفائهن رسالة تحت ملابسهن الداخلية. انفعل من هذا العمل الذي جعل شانطال، هذه المرأة الفريدة التي لا نظير لها، تصطف في موكب بنات جنسها

اللانهائي. فهو لم يسعَ قط لمعرفة شيء عن حياتها الخاصة التي سبقت عشرتهما، فلماذا سيهتم بها الآن، بل لماذا سيغتاظ لذلك؟

علاوة على ذلك تساءل عما هو السر الحميمي؟ أفي هذا السر يكمن الجانب الأكثر فردانية وأصالة وغرابة في الكائن الإنساني؟ أتجعل هذه الأسرار من شانطال الكائن الفريد الذي يعشقه؟ كلا، فالسر هو الشيء الأكثر شيوعاً والأكثر عاديّة وتكرارا وانتشارا بين الناس: الجسد وحاجاته وأمراضه وعاداته السيئة كالإمساك مثلا أو الحيض. فإذا كان الناس يخفون مثل هذه المسائل، فليس لأنها مغرقة في الحميمية، بل لأنها لاشخصية بشكل محزن. فكيف له أن يأخذ على شانطال انتماءها لجنسها، وشبهها بقية النساء، وارتداءها حاملة الصدر وتمثّلها سيكولوجية حاملة الصدر؟ كما لو كان هو لا يرتكب حماقات ذكورية أزليّة! فهما معا يستمدان أصلهما من ورشة الترميم هذه حيث أُفسدت حركة الجفن المفككة عيونهما، وحيث أقامت في بطناهما مصنعا صغيرا نتِنا. إن لكلّ منهما جسداً تضيق به الروح البئيسة، أليس حريا بهما التغاضي والصفح عنه؟ أما ينبغي لهما تجاوز الأشياء الحقيرة التي يخفيانها في الأدراج؟ تملّكته

شفقة عظيمة، ولكي يضع نقطة نهاية لهذه الحكاية، قرر أن يكتب لها رسالة أخيرة.

33

وهو منحنٍ فوق ورقة، كان يفكر من جديد في ما كان يسمّيه سيرانو (الذي كانه ومايزال، للمرة الأخيرة) شجرة الاحتمالات. وشجرة الاحتمالات هي الحياة كما تظهر للإنسان الذي بلغ، مندهشا، عتبة حياته الراشدة: أغصان شجرة مزهرة مليئة بنحلات تغني. وظن أنه فهم سبب إخفائها الرسائل عنه: كانت تريد سماع همس الشجرة بمفردها، وبدونه، لأنه هو، جان مارك، كان يمثّل إلغاء لكل الإمكانات، واختزالا لحياتها -حتى وإن كان اختزالا سعيدا- في إمكان واحد. فهي لم تكن تجسر على مفاتحته في شأن هذه الرسائل لأنها بهذه الصراحة ستؤكد (لنفسها وله هو أيضا) بأنها لم تكن تهتم حقيقة بالإمكانات التي تتيحها لها الرسائل، وأنها تتخلى مسبقا عن هذه الشجرة الضائعة التي كان يريها إياها. كيف له أن يلومها على

ذلك؟ فهو في نهاية المطاف من رغب في إسماعها موسيقى أغصان الشجرة الهامس، وبذلك فهي إنما تصرفت وفق إرادته، ونزلت عند رغبته.

قال في نفسه وهو منحنٍ على الورقة: ينبغي أن يستمر صدى هذا الهمس داخل شانطال حتى بعد انتهاء مغامرة الرسائل، فكتب لها بأن ضرورة طارئة تدعوه للرحيل؛ ثم لوّن كلامه بقوله: «أهو حقا رحيل لأسباب طارئة؟ أم أنني لم أكتب هذه الرسائل إلا لأني كنت أدرك أنها ستظل بدون تتمة؟ أليس رحيلي الأكيد هو ما دفعني لمخاطبتك بمنتهى الصراحة؟»

أجل، الرحيل هو الحل الوحيد الممكن. ولكن إلى أين؟ وفكر: هل يسكت عن تحديد الوجهة؟ إن ذلك سيجعله غامضا بشكل رومانسي، أو بالأحرى سيكون هرباً غير مهذب. صحيح أن وجوده ينبغي أن يظل خفيا، لأن الإفصاح عن أسباب الرحيل سيفضح هوية كاتب الرسائل الوهمية، من خلال مهنته مثلا. ومع ذلك سيكون الكشف عن وجهة سفره أقرب إلى الواقع. أيرحل إلى مدينة فرنسية؟ لا، لن تكون تلك ذريعة مقنعة لإنهاء المراسلة. ينبغي أن

تكون وجهة الرحيل بعيدة. نيويورك؟ المكسيك؟ اليابان؟ سيبدو الأمر مريبا. ينبغي البحث عن مدينة بقدر ما تكون غريبة، تكون قريبة وعادية. إنها لندن! أجل هي. وبدا له الأمر منطقيا وعاديا إلى درجة أنه قال في نفسه متبسّماً: بالفعل، لا يمكن أن أذهب إلا إلى لندن؛ وسرعان ما تساءل: لماذا تبدو لي لندن عادية إلى هذا الحد؟ وهنا لمعت في ذهنه ذكرى رجل لندن الذي طالما تمازح هو وشانطال بشأنه؛ الرجل المغرم بالنساء الذي قدم لشانطال بطاقة زيارته. إنه ذلك الرجل البريطاني الذي لقبه جان مارك بـ»بريطانيكوس». ليست هذه الوجهة سيئة. فلندن هي مدينة الأحلام الشبقية. إلى هناك سيذهب العاشق المجهول ليذوب في جماهير المُتهتكين والقنّاصين والمهووسين جنسيا والفجّار، وهناك سيختفي إلى الأبد.

ثم استرسل في تفكيره: سيضع كلمة لندن في الرسالة كتوقيع، باعتبارها أثرا لا يكاد يُلحظ من أحاديثه مع شانطال. ثم سخر من نفسه في صمت: يريد أن يظل متخفيا، مجهول الهوية، لأن اللعبة تقتضي ذلك. لكن اعترته مع ذلك رغبة مناقضة وغير مبررة، لامعقولة، خفية وبليدة بكل تأكيد، رغبة في ألا يكون خفيا تماما، في أن يترك علامة

دالة عليه، وأن يخفي في مكان ما من الرسالة توقيعا مرموزا يستطيع بمقتضاه الملاحظ المجهول الثاقب الذهن أن يتعرف إلى هويته.

وبينما كان ينزل السلم لوضع الرسالة في صندوق الرسائل، سمع جلبة أصوات حادة، وما كاد يصل إلى أسفل السلم حتى رآهم: امرأة وثلاثة أطفال يقفون أمام أجراس شقق العمارة. مرّ بجوارهم وهو متوجه إلى الصناديق المصفوفة على الحائط قبالته، فلما استدار رأى المرأة تضغط على الزر الذي كتب عليه اسمه واسم شانطال، فسألها: «هل تبحثين عن أحد؟»

فنطقت المرأة اسما. فقال:

«إنه أنا!»

تراجعت خطوة إلى الخلف، وحدجته بنظرة إعجاب مصطنعة: «إنه أنت! آه، كم أنا سعيدة بمعرفتك! أنا أخت زوج شانطال!»

34

انتابه الارتباك، فلم يجد بدّا من دعوتهم إلى البيت، وعندما دخلوا

جميعا إلى الشقة قالت أخت الزوج: «لا أريد إزعاجك»

-لن تزعجيني، ثم إن شانطال لن تتأخر.

وأخذت أخت الزوج تتحدث وهي تنظر بين الفينة والأخرى إلى الأطفال الذين جلسوا بهدوء وخجل أقرب إلى الذهول.

قالت وهي تداعب رأس أحدهم: «يسعدني أن تراهم شانطال، فهي لا تعرفهم لأنهم ولدوا بعد مغادرتها. كانت تحبّ الأطفال، فقد كانوا يملأون المنزل. كان زوجها مقيتا. لا ينبغي أن أتحدث عن أخي هكذا، لكنه تزوج ثانية، ولم يعد يرانا.» ثم تابعت ضاحكة: «الواقع أنني كنت دائما أفضّل شانطال على زوجها!»

خطت من جديد خطوة إلى الوراء، وحدجت جان مارك بنظرة فيها مزيج من الإعجاب والاستفزاز: «أخيرا أحسَنَتْ اختيار زوجها! لقد جئت من أجل الترحيب بك بيننا، وسأكون ممتنة لك إذا زرتنا، فتعيد لنا بذلك شانطال. إن باب بيتنا مفتوح متى شرّفت»

-شكرا.

-إنك طويل القامة، كم يعجبني ذلك؛ أما أخي فأقصر من شانطال. كان دائما يتهيأ لي أنها أمه، وكانت تدعوه بـ «فأرتي الصغيرة». أترى؟

كانت تطلق عليه لقبا أنثويا! ثم أضافت وهي تنفجر ضاحكة: «كنت أتخيلها دائما تحمله بين ذراعيها وهي تهدهده وتوشوش في أذنه: يا فأرتي الصغيرة! يا فأرتي الصغيرة!»

خطت بضع خطوات وهي ترقص وتشد ذراعيها كما لو كانت تحمل رضيعا، ومضت تردّد: «يا فأرتي الصغيرة! يا فأرتي الصغيرة!» ثم واصلت رقصتها للحظة محاولة بذلك إثارة ضحك جان مارك. ولكي يرضيها، اصطنع ابتسامة، وتخيل شانطال مع رجل تدعوه «يا فأرتي». تابعت أخت الزوج كلامها، ولم يستطع هو التخلص من تلك الصورة التي أشعرته بالقشعريرة: صورة شانطال تدعو رجلا (أقصر منها) «يا فأرتي الصغيرة».

كانت الضجة تملأ الغرفة المجاورة، وتنبّه جان مارك إلى أن الأطفال اختفوا من أمامهما. إنها خطة الغُزاة الماكرة: فقد نجحوا، تحت ستار صبيانياتهم، في التسلّل إلى غرفة شانطال، كجيش خفي في البداية، ثم بصخب الغزاة بعد أن أحكموا إغلاق الباب خلفهم بتكتم. شعر جان مارك بالقلق من ذلك، لكن أخت الزوج طمأنته: «لا تخش شيئا، إنهم صبية يلعبون.»

-أجل، أجاب جان مارك، أرى أنهم يلعبون؛ ثم توجه إلى الغرفة الضاجة، لكن أخت الزوج كانت أسرع منه. وما إن فتحت الباب حتى وجدتهم قد حولوا كرسيا دوارا إلى مدوّرة، إذ تمدد أحد الأطفال فوق الكرسي على بطنه وهو يدور على نفسه، بينما يراقبه الآخران وهما يصرخان.

«إنهم يلعبون، ألم أقل لك؟» قالت أخت الزوج وهي تعيد إغلاق الباب، ثم أضافت بغمزة عين متواطئة: «إنهم أطفال، ماذا تريد؟ من المؤسف ألا تكون شانطال حاضرة، كم أودّ أن تراهم.»

وسرعان ما تحولت ضجة الغرفة المجاورة إلى ضوضاء، ولم تعد لجان مارك رغبة في إسكاتهم، وتراءت له شانطال وهي تهدهد بين ذراعيها، وسط هذا الشغب العائلي، الرجل الذي تدعوه «فأرتي». وما لبثت هذه الصورة أن اقترنت بصورة أخرى: شانطال التي تحتفظ، باصرار، برسائل عشيق مجهول لكي لا تُغتال في المهد مغامرات موعودة. إن شانطال هذه لا تشبه نفسها، شانطال هذه ليست تلك التي يحب، ليست شانطال هذه غير شبح. وسرت فيه رغبة مدمرة غريبة، وراقته الجلبة التي يحدثها الأطفال، وتمنى لو يهدمون الغرفة، ويدمرون

كل ذلك العالم الصغير الذي أحب، والذي غدا عالما وهميا.

وفي هذه الأثناء استرسلت أخت الزوج قائلة: «كان أخي في نظرها بالغ الهزال، أتفهمني، هزيل...» وضحكت «... بكل معاني الكلمة، أتفهمني، أتفهمني!» وتمادت في الضحك: «وفضلا عن هذا، هل لي أن أقدم لك نصيحة؟

-نعم، تفضلي.

-نصيحة حميمة جدا!»

قرّبت فمها منه وحكت له شيئا، لكن لما لامست شفتاها أذنه أحدثتا صوتا جعل همسها غير مسموع، ثم ابتعدت وقالت: «ما رأيك؟»

لم يكن قد سمع شيئا، لكنه ضحك. «آه، لقد وجدت هذا مسليا!»، قالت له أخت الزوج وهي تضيف: «أستطيع أن أحكي لك أشياء كثيرة مماثلة. هل تعلم؟ ليست بيني وبينها أسرار؛ إذا كانت بينك وبينها مشاكل، قل لي، أستطيع أن أسدي لك نصائح مفيدة!» ثم ضحكت وهي تقول: «أعرف كيف يمكن ترويضها!»

وفكر جان مارك: طالما تحدثت شانطال عن عائلة زوجها بعدوانية، فكيف يمكن لأخت زوجها أن تظهر كل هذا العطف

نحوها؟ ماذا يعني بالضبط كره شانطال لهم؟ كيف يمكن أن يكره المرء ويتكيف بسهولة في الآن نفسه مع ما يكره؟

كان الأطفال يعيثون فسادا في الغرفة المجاورة، وابتسمت أخت الزوج وهي تومئ إليهم: «هذا لا يزعجك في ما أرى! فأنت مثلي. أتعلم، أنا لست امرأة منظمة، أحب أن تتحرك الأمور وتدور وتغني، باختصار، أنا أحب الحياة!»

واسترسل في أفكاره على خلفية زعيق الأطفال: هل السهولة التي تتكيف بها هذه المرأة مع ما تكره تدعو إلى الإعجاب حقا؟ هل يعدّ امتلاك الإنسان لوجهين انتصارا حقا؟ وراقته فكرة أنها بالنسبة لرجال الإشهار أشبه ما تكون بدخيل أو جاسوس أو عدو مقنع أو إرهابي محتمل. لكنها ليست إرهابية، ولو قيض له أن يستعمل مصطلحا سياسيا، لاعتبرها بالأحرى عميلة. عميلة تخدم مصالح سلطة مقيتة دون أن تتماهى معها، تخدمها مع الحفاظ على مسافة تفصلها عنها، بحيث إنها في يوم من الأيام، ستدافع عن نفسها أمام القضاة بأنها كانت تملك وجهين.

وقفت شانطال مذهولة عند عتبة باب الشقة لدقيقة تقريبا، ولم يلاحظ وجودها لا جان مارك ولا أخت الزوج. وسمعت الصوت الثاقب الذي لم تسمعه منذ مدة طويلة جدا: «فأنت مثلي. أتعلم، أنا لست امرأة منظمة، أحب أن تتحرك الأمور وتدور وتغني؛ باختصار، أنا أحب الحياة!»

وأخيرا وقعَ نظر أخت الزوج عليها، فصاحت: «شانطال، ياللمفاجأة، أليس كذلك؟»، وهرعت لتقبيلها، فشعرت شانطال عند ملتقى شفتيها برطوبة فمها.

وما لبث ظهور البنت الصغيرة أن وضع حدّا للارتباك الذي خلقه ظهور شانطال، فأعلنت لها أخت الزوج: «إنها صغيرتنا كورين»، ثم بادرت الطفلة: «سلمي على خالتك»، لكن الطفلة لم تعر شانطال أي اهتمام، وقالت إنها تريد أن تتبول. ودون أن تتردد، توجهت أخت الزوج -كمن يعرف الشقة حق المعرفة- إلى الممر، واختفت مع كورين في المرحاض.

- «يا إلهي»، همست شانطال منتهزة فرصة غيابها، «كيف عثروا

علينا؟»

هزّ جان مارك كتفيه. وبما أن أخت الزوج تركت باب الممر وباب المرحاض مواربين، لم يكن بإمكانهما أن يقولا شيئا. ظلا يسمعان صوت البول وهو يرتطم بماء حوض المرحاض ممزوجا بصوت أخت الزوج التي واصلت تقديم معلومات حول عائلتها، ناهرة بين الفينة والأخرى البنت الصغيرة المتبولة.

وتذكرت شانطال ما حدث لها يوما في الفيلا عندما أغلقت على نفسها في المرحاض، فإذا بأحد يشدّ مقبض الباب محاولا فتحه؛ وبما أنها كانت تكره أن تتحدث من خلف باب المرحاض، فإنها ظلت صامتة، فصرخ أحدهم من الخارج لكي يثني الشخص المتعجل: «شانطال هي من في المرحاض!» ورغم إخباره بوجودها، ظل المتعجّل يهزّ مقبض الباب مرات عدّة كما لو أنه يعبر بذلك عن احتجاجه على صمتها.

وتلا صوت البول ضجة طرادة المياه، وظلت شانطال ماتزال تفكر في الفيلا الإسمنتية الواسعة التي تتردد فيها كل الأصوات دون القدرة على تحديد مصدرها. كانت معتادة على سماع تأوهات أخت الزوج

أثناء الجماع (إذ كان صوتها -الذي لا لزوم له- استفزازا أخلاقيا أكثر منه استفزازا جنسيا. فقد كان تعبيرا استعراضيا عن رفض كل الأسرار). وفي يوم من الأيام بلغتها من جديد التأوهات الجنسية، ولم تفهم أنها صادرة عن جدة مصابة بالربو كانت تئنّ وهي ترقد في الجهة الأخرى من الفيلا إلا بعد مضي وقت ليس باليسير.

عادت أخت الزوج إلى الصالون، وقالت لكارين: «هيّا، انصرفي!»، فركضت الطفلة إلى الغرفة المجاورة لتلتحق بالصبية الآخرين. ثم خاطبت جان مارك: «لا ألوم شانطال على هجرها أخي، ربما كان عليها أن تتركه قبل ذلك الوقت؛ لكن ما آخذه عليها هو أنها نسيتنا»، ثم استدارت نحو شانطال: «بالرغم من كل شيء يا شانطال، فنحن جزء كبير من حياتك! ليس بإمكانك التنكر لنا، ومحوَنا، لن تستطيعي تغيير ماضيك! ماضيك هو ما هو عليه. لن تستطيعي نفي أنك كنت سعيدة بيننا. لقد جئت لأقول لرفيقك مرحبا بكما معا عندي!»

كانت شانطال تُنْصِت لكلامها وهي تقول في نفسها إنها عاشت طويلا وسط هذه العائلة من دون أن تعبِّر عن غيريّتها إلى درجة أن

أخت زوجها قد يكون غاظها قطع علاقاتها بهم بعد طلاقها. لماذا ظلت طيّبة ومستكينة طيلة سنوات زواجها؟ هي نفسها لا تعرف ماذا تطلق على موقفها ذاك. أهو إذعان؟ نفاق؟ لامبالاة؟ انضباط؟

عندما كان ابنها على قيد الحياة، كانت مستعدة كل الاستعداد لقبول هذه الحياة الجماعية، والعيش تحت مراقبة دائمة، مع ما تفرضه هذه الحياة الجماعية من قذارة، وعري شبه إجباري في المسبح، والاختلاط البريء الذي كان يسمح لها بمعرفة من مرّ قبلها بالمرحاض انطلاقا من آثاره الدقيقة والمربكة مع ذلك. أكانت تحب تلك الحياة؟ كلا، لقد كانت تشعر بالتقزز منها، لكنه كان تقززا لطيفا، صامتا، مستكينا، يكاد يكون هادئا، ولا يخلو من سخرية، ولا يتمرد أبدا. ولو لم يمت ابنها لعاشت على هذا النحو إلى آخر أيامها.

تعاظم الضجيج في غرفة شانطال، فصاحت أخت الزوج: «كفى!»، لكن صوتها، الذي كان أمْيَل إلى المرح منه إلى الغضب، لم يكن ليسكت الصراخ بقدر ما انضمّ إلى موكب الفرح.

نفد صبر شانطال، فاقتحمت الغرفة. كان الأطفال يتسلقون الأرائك، لكنها لم ترهم، بل نظرت مشدوهة إلى الخزانة التي

كانت مشرعة، وقد نثرت على الأرض حمالات صدرها وسراويلها الداخلية وبُعثرت الرسائل؛ ولم تنتبه إلى أن كُبراهم توشحت بحمالة صدر بحيث بدا الجيب المخصص للثدي الذي أدخلت فيه رأسها كخوذة فارس روسي.

«انظر إليها!» قالت أخت الزوج ضاحكة وهي تمسك بكتف جان مارك بودّ. «انظر، انظر! إنه حفل تنكري!»

رأت شانطال الرسائل المطروحة أرضا، فصعد الغضب إلى رأسها. لم تكد تمضي ساعة على مغادرتها مكتب خبير الخطوط حيث عوملت بازدراء، ولم تستطع، وقد خانها جسدها الملتهب، أن تقاوم. لقد تعبت الآن من الإحساس بنفسها مذنبة: لم تعد الرسائل بالنسبة إليها سرا تافها عليها أن تخجل منه، فهي تمثل، بدءا من هذه اللحظة، زيف جان مارك، وخداعه، وخيانته.

لاحظت أخت الزوج ردّ فعل شانطال المشمئز، فانحنت على الطفلة من دون أن تكف عن الكلام والضحك، وسحبت منها حمالة الصدر، ثم قرفصت لكي تجمع الثياب الداخلية.

فقالت لها شانطال بنبرة قاسية: «لا، لا أرجوك، اتركيها.»

-كما تشائين، كما تشائين، كنت أريد أن...

-أعلم، قالت شانطال، وهي تنظر إلى أخت زوجها التي عادت لتستند على كتف جان مارك. وتهيأ لشانطال أنهما متواطئان، وأنهما يشكلان زوجا متناسقا، زوجا من المتلصصين والجواسيس. كلا، لم تشأ إغلاق الخزانة، تركتها مفتوحة كدليل على النهب الذي تعرضت له. قالت في نفسها: هذه الشقة شقتي، وأودّ أن أبقى بمفردي، ثم رددتها بصوت مرتفع: «هذه شقتي، وليس لأي كان الحق في فتح دولابي والعبث بأغراضي الخاصة، لا أحد. أقول: لا أحد.»

لقد كانت هذه الكلمة الأخيرة موجهة لجان مارك أكثر مماهي موجّهة إلى أخت زوجها، ولكن حتى لا تفضح شيئا أمام الدخيلة، سرعان ما خاطبتها قائلة: «انصرفي أرجوك.

فقالت لها أخت الزوج مدافعة:

-لم يعبث أحد بأغراضك الخاصة.

كانت إجابات شانطال مشفوعة بإشارات من رأسها إلى باب الخزانة المفتوح، وإلى لباسها الداخلي ورسائلها المنثورة على الأرض.

قالت أخت الزوج:

«يا إلهي، الأطفال لعبوا!»، أما الأطفال فقد التزموا الصمت، كما لو شعروا بحسهم الديبلوماسي، بأن الغضب قد عمّ المكان.

ورددت شانطال وهي تشير إلى الباب: «أرجوك.»

كان أحد الأطفال يحمل في يده تفاحة تناولها من طبق موضوع فوق الطاولة، فقالت له شانطال: «أعد التفاحة إلى مكانها.»

-أأنا أحلم؟ صرخت أخت الزوج.

-أعد التفاحة، من أعطاك إياها؟

-إنها تنزع تفاحة من يد طفل، يخيّل إلي أنني أحلم؟!

أعاد الطفل التفاحة إلى الطبق، وأمسكته أخت الزوج من يده، وانضم إليهما الآخران ثم انصرفوا.

36

ألفت نفسها وحيدة مع جان مارك، ولم تجد فرقا بينه وبين أولئك

الذين انصرفوا. فقالت له: «كدت أنسى أنني اشتريت هذه الشقة في السابق لكي أتحرر، لكي لا يتلصص عليَّ أحد، لكي أضع أشيائي حيث شئت، وأكون متيقنة بأنها ستظل في مكانها.»

- لقد قلت لك مرارا بأن مكاني هو إلى جانب ذلك الشحاذ وليس إلى جانبك. أنا على هامش هذا العالم، أما أنت فتحتلين مكاناً في المركز.

-لقد أقمتَ في هامشيّة مترفةٍ لا تكلفك شيئاً.

-كنتُ دائما مستعدا لمغادرة هذا الهامش المترف، أما أنتِ فلن تهجري أبدا حصن امتثاليّتك الذي تقيمين فيه بوجوهك المتعددة.»

37

قبل دقيقة كان جان مارك يريد توضيح الأمور، والاعتراف بخداعه، لكن العبارات التي تبادلاها جعلت الحوار مستحيلا. لم يعد له ما يقول. فالشقة شقتها فعلا وليست شقته، ثم لقد قالت له إنه يقيم في هامشية مترَفة لا تكلفه شيئا، وهو أمر صحيح: فدخله يمثل

خمس دخلها، وعلاقتهما كانت تقوم على اتفاق واضح: ألا يتكلما قط عن هذا التفاوت.

كانا واقفين وجها لوجه، تفصل بينهما طاولة. سحبت من حقيبتها ظرفا وفتحته ثم بسطت الرسالة: كانت هي نفسها الرسالة التي كتبها لها قبل ساعة تقريبا. لم تحاول إخفاء الأمر، بل قامت بذلك بطريقة استعراضية، ثم مضت تقرأ بلا تردد الرسالة التي كان من المفروض أن تبقيها سرية. بعد ذلك أعادت الرسالة إلى حقيبتها، ورمقت جان مارك بنظرة قصيرة تكاد تكون لا مبالية، ودون أن تضيف شيئا، انسحبت إلى غرفتها.

فكر ثانية في ما قالت له: «ليس لأيٍّ كان الحق في فتح خزانتي والعبث بأغراضي الخاصة». الله وحده يعلم كيف توصلت إلى أنه يعرف تلك الرسائل، ويعرف مخبأها، وهي إنما حاولت أن تفهمه أنها تعلم ذلك، وأنها لا تبالي به، ومصممة على أن تعيش كما يحلو لها من دون أن تعبأ به، وأنها من الآن فصاعدا مستعدة لأن تقرأ رسائلها الغرامية أمامه. وبعدم اكتراثها هذا، كانت تستبق غياب جان مارك. فهو لم يعد موجودا بالنسبة لها، لقد رحل.

ظلت في غرفتها طويلا، وظل هو يسمع صوت الكناسة الكهربائية الغاضب الذي يعيد النظام للفوضى التي خلّفها الدخلاء. ثم ذهبت إلى المطبخ، وبعد عشر دقائق نادته، فجلسا إلى طاولة صغيرة لتناول وجبة خفيفة باردة. ولأول مرة في حياتهما المشتركة، لم ينبسا بكلمة. آه، ما أسرع مضغهما لطعام لا يجدان له مذاقا! ثم انسحبت من جديد إلى غرفتها. لم يعد يدري ما يفعل (لم يعد يقوى على فعل شيء)، فارتدى منامته، وتمدد على السرير الواسع حيث اعتادا النوم سويا؛ لكنها هذا المساء لم تبرح غرفتها. كان الوقت يمضي، وكان هو غير قادر على النوم، وفي الأخير قام، وألصق أذنه بباب الغرفة، فسمع تنفسا رتيبا. كان ذلك النوم الهادئ، وتلك السهولة التي نامت بها، مصدر عذاب له، وظل على هذه الحال طويلا، وقال في نفسه إنها أقل هشاشة مما كان يعتقد، وأنه ربما أخطأ لمّا ظنّ أنها الأضعف وأنه الأقوى.

بالفعل، من الأقوى؟ لما كانا يوجدان معا على أرض الحب، قد يكون صحيحا أنه الأقوى. لكن لما اختفت أرض الحب من تحت أقدامهما، فقد أصبحت هي الأقوى، وهو الأضعف.

38

لم تنم جيداً على سريرها الضيق جيدا كما كان يظن. كان نوما متقطعا ومليئا بالأحلام المزعجة المفككة، العبثية التافهة، والشبقية المتعبة. وكلما استيقظت بعد هذه الأحلام، شعرت بالضيق، وتبادر إلى ذهنها أن هذا سر من أسرار حياة المرأة، أي امرأة، هذا الاختلاط الليلي الذي يجعل كل الوعود بالوفاء، كل عفة وكل براءة، يجعلها مشبوهة. لم يعد أحد يعبأ بذلك في هذا القرن، لكن شانطال يروقها أن تتخيل أميرة «كليف» أو الطاهرة «فيرجيني دو بيرنادان دو سان بيير»، أو القديسة «تيريز دا فيلا»، أو الأم «تيريزا» التي تطوف العالم في أيامنا، وهي تتصبب عرقا، للقيام بأعمالها الخيرية. يروقها أن تتخيلهن خارجات من لياليهن وكأنهن خرجن من مكان مدنس برذائل مخزية بلهاء وغير متوقعة، فتصرن مع مطلع اليوم الجديد أبكارا عفيفات. هكذا كانت ليلتها: استيقظت مرارا، دائما حفلات ماجنة غريبة مع رجال لا تعرفهم، يثيرون اشمئزازها.

لم تشأ أن تسقط ثانية في تلك الملذات السافلة، فاستيقظت مبكرا،

وارتدت ملابسها، ولملمت في حقيبة صغيرة بعض الأغراض التي تصلح لسفرة قصيرة، وما إن تأهبت للخروج، حتى رأت جان مارك واقفا بمنامته عند باب غرفتها، فبادرها:

- إلى أين تذهبين؟

-إلى لندن.

-ماذا تقولين؟ إلى لندن؟ ولِمَ لندن؟

فردّت بهدوء: «أنت تعلم جيدا لِمَ لندن.»

احمرّ جان مارك. وظلت هي تردد: «أنت تعلم جيدا، أليس كذلك؟»، وَرنَتْ إلى وجهه. أي انتصار باهر عندما رأته هو الذي يحمر هذه المرة!

قال وهو يشعر بوجنتيه تلتهبان: «لا، لست أعلم لماذا تتوجهين إلى لندن.»

وظلت تنظر إليه وهو يحمر، ثم قالت: «لدينا ندوة بلندن. أخبروني بالأمر مساء أمس. لعلك تدرك أنه لم تتوفّر لي لا الفرصة ولا الرغبة للتحدّث إليك عن ذلك.»

كانت واثقة بأنه لن يصدق كلامها، وسرّها أن تكون كذبتها على

هذا القدر من الصفاقة والفظاظة والوقاحة والعدوانية.

«لقد طلبت تاكسي. سأنزل. قد يصل التاكسي بين لحظة وأخرى.»

ابتسمت له ابتسامة من يقول وداعا أو إلى اللقاء، وفي اللحظة الأخيرة وضعت يدها اليمنى على خد جان مارك بحركة بدت كما لو كانت حركة لا إرادية، أو حركة أفلتت منها. كانت قصيرة للغاية، بحيث لم تدم سوى ثانية أو ثانيتين، ثم ادارت ظهرها وخرجت.

39

شعر بيدها، أو بالأحرى بأطراف أنامل أصابعها الثلاثة، تلامس وجنته، وتترك أثرا باردا، كما يشعر المرء بعد لمس ضفدع. كانت لمساتها دائما بطيئة وهادئة، وكان يتهيأ له دائما أنها تريد أن تبطء الزمن. لما وضعت أصابعها الثلاثة على وجنته بسرعة، لم تكن لمسة، بل تذكيرا. كما لو أنها فاجأتها العاصفة أو جرفتها الموجة، ولم تجد أمامها غير حركة واحدة خاطفة لتقول: «ومع ذلك، فقد

كنت هنا! مررت من هنا! بالرغم مما قد يقع، لا تنسني!»

ارتدى ملابسه بطريقة آلية وهو يفكر في ما قالاه بخصوص لندن. سألها: «لِم لندن؟»، فأجابته: «أنت تعلم جيدا لِمَ لندن.» كانت إشارة واضحة للرحيل الوارد في الرسالة. فهي تقصد بعبارة «أنت تعلم جيدا»: أنت تعرف الرسالة. لكن الرسالة التي أخذتها من صندوق الرسائل لا يمكن أن يعلم بأمرها غيرها وغير مرسلها. بعبارة أخرى: إن شانطال نزعت القناع عن سيرانو المسكين، وأرادت أن تقول له: أنت من دعاني إلى لندن، وها أنا ذا أطيعك.

لكنها إذا كانت خمّنت (يا إلهي كيف استطاعت أن تخمن!) أنه هو كاتب الرسائل، فلماذا أساءت، إلى هذا الحد، فهم المسألة؟ لماذا هي قاسية إلى هذا الحد؟ وإذا كانت خمّنت كل شيء، فلماذا لم تخمّن دوافع مزحته؟ لماذا ترتاب به؟ لم يكن يرى وراء كل هذه الأسئلة إلا شيء واحد مؤكد: لم يعد يفهمها. وهي بدورها أيضاً لم تفهم شيئا، ذلك أن أفكارهما سارت في اتجاهين متعاكسين، ويخيّل إليه أنهما لن يلتقيا أبدا.

لم يكن يطمح إلى تسكين الآلام التي تنهشه، بل على الخلاف من

ذلك، كان يرغب في أن ينكأ الجرح ويعرضه أمام الجميع كما يعرض المظلوم الظلم الذي حلّ به. لم يقو على انتظار عودة شانطال حتى يبدد لها سوء التفاهم. كان يدرك جيدا في أعماقه أن هذا السلوك هو الوحيد الحكيم، لكن الألم صمّ أذنيه عن الحكمة، فهو يملك حكمته الخاصة البعيدة عن الحكمة. ما كانت تمليه حكمته غير الحكيمة هو أن تجد شانطال عند عودتها الشقة فارغة، من دونه، مثلما صرّحت، حتى تبقى لوحدها بدون جواسيس. وضع في جيبه بعض الأوراق النقدية، وهي كل ما يملك من مال، ثم تردد لحظة في ما إذا كان عليه أن يحتفظ بالمفاتيح أو يتركها، وانتهى بتركها على الطاولة الصغيرة عند المدخل. حين ستبصرها عند عودتها، ستفهم بأنه لن يعود قط. كل ما سيبقى من ذكراه هنا هي بعض الثياب في الخزانة، وبعض الكتب في المكتبة.

غادر المنزل وهو لا يعرف ماذا سيفعل. المهم هو أن يترك هذه الشقة التي لم تعد شقته، أن يتركها حتى قبل أن يقرر إلى أين سيذهب، لن يسمح لنفسه بالتفكير في ذلك إلا عندما يصبح في الشارع.

ولما صار خارج البناية، خامره شعور غريب بأنه يوجد خارج

الواقع، وأن عليه أن يتوقف وسط الرصيف حتى يستطيع التفكير. إلى أين سيذهب؟ كان ذهنه مشتتا: أيذهب إلى «البيريغور» حيث يسكن قسم من أقاربه الفلاحين الذين اعتادوا على استقباله بحبور؟ أم يلجأ إلى أي فندق باريسي رخيص؟ وبينما كان يفكر، توقفت سيارة تاكسي عند إشارة المرور، فأومأ لسائقها.

40

بطبيعة الحال لم يكن أي تاكسي بانتظار شانطال، ولم تكن هي تعرف أي وجهة تقصد. كان قرارها مرتجلا، أملاه الغضب الذي عجزت عن السيطرة عليه. لم تكن تريد غير شيء واحد: ألا تراه ليومٍ وليلة على الأقل. وفكرت في حجز غرفة في فندق في المدينة نفسها، في باريس، لكن ما لبثت أن بدت لها الفكرة بليدة: كيف ستقضي يومها؟ أتتجول في الشوارع لتتنفس هواءها الملوّث؟ أتسجن نفسها في الغرفة؟ وما عساها تفعل فيها؟ ثم فكرت في

ركوب السيارة والتوجه إلى الريف بدون خطة مسبقة، والبحث فيه عن مكان هادئ، تقضي فيه يوما أو يومين. ولكن أين؟

ولم تشعر بنفسها إلا وهي أمام محطة الأوتوبيس. ودّت لو تصعد إلى أول حافلة، وتظل فيها إلى آخر محطة. وقفت حافلة، وأصيبت بالدهشة عندما قرأت بين أسماء الأماكن التي تقصدها اسم محطة الشمال. فمنها تنطلق القطارات نحو لندن.

شعرت كما لو أنها محكومة بسلسلة من المصادفات، وحاولت أن تقنع نفسها بأن جنيّة طيّبة هبّت لنجدتها. وهي إذا كانت صرّحت لجان مارك بأنها ذاهبة إلى لندن، فإنما لكي تشعره بأنها كشفته. وفي هذه الأثناء راودتها فكرة: ربما صدّق جان مارك كلامها، وربما قصد المحطة بحثا عنها. وأعقبت هذه الفكرة فكرة أخرى أضعف منها، تكاد لا تسمع، كأنها صوت عصفور صغير: لو جاء جان مارك إلى هناك فإن سوء التفاهم الطريف هذا سينتهي. كانت هذه الفكرة كلمسة رقيقة، لكنها لمسة قصيرة أكثر مما ينبغي، لأنها سرعان ما ثارت من جديد، وصدّت كل شعور بالحنين.

لكن، إلى أين ستذهب؟ وماذا ستفعل؟ ماذا لو ذهبت فعلا إلى

لندن؟ ماذا لو تركت كذبتها تتحقق؟ وتذكرت أنها ما تزال تحتفظ في مذكرتها بهاتف «بريطانيكوس». كم يكون عمر «بريطانيكوس» الآن؟ كانت تدرك أن لقاءه أمر صعب التحقق. وماذا بعد؟ هذا أفضل. ستصل إلى لندن، وتتجول فيها، وتحجز غرفة في فندق، ثم تعود إلى باريس في الغد.

وراقتها هذه الفكرة: بمغادرة البيت، فهي تحلم باسترجاع استقلالها، وهي في الواقع إنما كانت خاضعة لقوة مجهولة ومطلقة. إن قرار الذهاب إلى لندن الذي أوحى لها به القدر الأخرق يعدّ جنونا. لماذا تعتقد أن هذه المصادفات تعمل لصالحها؟ لماذا تحسبها عمل جنيّة طيّبة؟ ماذا لو كانت هذه الجنية شريرة تكيد لها للإيقاع بها؟ ووطنت نفسها على أن تجمد في مكانها حين يتوقف الأوتوبيس أمام محطة الشمال، وأن تتابع طريقها.

لكن، لما توقف الأوتوبيس، لم تشعر بنفسها إلا وهي تغادره متوجهة إلى المحطة، كما لو أن قوّة كانت تجذبها إلى ذلك المبنى.

في ردهة المحطة رأت السلم الرخامي الذي يقود إلى الأعلى نحو قاعة الانتظار المخصصة للمسافرين المتوجهين إلى لندن. كانت

تريد أن تراجع مواقيت القطار، لكن قبل أن تتمكن من ذلك، سمعت اسمها وسط الضحكات، فتوقفت، ولمحت زملاءها متجمعين تحت السلّم. وما إن لاحظوا أنها رأتهم حتى علت ضحكاتهم أكثر، وبدوا كتلاميذ نجحوا في خدعة مسلية أو في مقلب فجائي متقن.

«نعرف جيدا ما علينا فعله لكي تأتي معنا! لو كنت تعلمين أننا هنا، لبحثت عن عذر كما تفعلين عادة! أيتها الأنانية اللعينة!»، ومن جديد، انفجروا ضاحكين.

كانت شانطال على علم بأن «لوروا» يخطط لندوة في لندن، لكنها لن تعقد إلا بعد ثلاثة أسابيع. فلماذا هم هنا اليوم؟ ومرة أخرى اعتورها شعور بأن ما يقع ليس حقيقيا، ولا يمكن أن يكون كذلك. لكن سرعان ما تلت هذه الدهشةَ دهشةٌ أخرى: فخلافا لما كان يمكن أن تفترض، سعدت بلقاء زملائها سعادة صادقة، وامتنَّت لكونهم هيّأوا لها هذه المفاجأة.

عندما كانت تصعد السلم، أمسكت زميلة شابة من زميلاتها بذراعها، فقالت في نفسها إن جان مارك لا يني يسحبها من الحياة التي كان من المفروض أن تعيشها، لقد سمعته شانطال يقول: «لقد

وضعتِ نفسك في المركز»، ثم: «لقد أقمت في حصن امتثاليتك»؛ وأجابته الآن: نعم، ولن تمنعني من البقاء فيه!

سحبتها زميلتها الشابة التي كانت ما تزال تمسك بذراعها وسط الحشد نحو مركز مراقبة الشرطة الواقع أمام سلّم آخر ينزل إلى الرصيف. استرسلت في شجارها الصامت مع جان مارك بانتشاء، ثم بادرته: أي قاض قرّر أن تكون الامتثالية شرّا، واللاامتثالية خيرا؟ أليست الامتثالية تقربا من الآخرين؟ أليست هي مكان اللقاء السامق الذي يلتفّ عنده الجميع، حيث تكون الحياة أكثف وأشد حماسا وحرارة؟

من أعلى السلم لاح لها قطار لندن، كان حديثا وأنيقا، وتابعت تقول لنفسها: سواء أكان الوجود على الأرض من حسن الحظ أو سوئه، فإن أفضل طريقة للعيش هي أن أدع نفسي، مثلما أفعل أنا الآن، أنساق مع حشد مبتهج وصاخب يتحرك قُدُماً.

قال وهو جالس في الطاكسي: «محطة الشمال!»، وكانت تلك لحظة الحقيقة: بإمكانه أن يهجر الشقة، ويرمي المفاتيح في نهر السين، وأن ينام في الشارع، لكنه لم يكن يجرؤ على الابتعاد عنها. الذهاب إلى المحطة بحثا عنها يمثّل بادرة يأس، غير أن قطار لندن هي الإشارة الوحيدة التي تركتها له، وهي إشارة لم يكن بوسعه تجاهل إمكانية أن تقوده إلى الطريق الصحيح، مهما كانت تلك الإمكانية ضئيلة.

عندما وصل إلى المحطة كان قطار لندن متوقفا. صعد السلم أربعا أربعا واشترى تذكرته. كان معظم المسافرين قد نزلوا، إلى الرصيف الذي كان تحت رقابة صارمة، وكان هو آخر من نزل. كان رجال الشرطة يتجولون بكلاب الرعي الألمانية المدربة على اكتشاف المتفجرات على امتداد القطار. صعد إلى عربة مليئة باليابانيين، وقد علّقوا على صدورهم آلات تصوير، ثم جلس في المكان المخصص له.

عندئذ بدا له عبث تصرفاته واضحا. فهو يوجد في قطار تشير كل

الاحتمالات إلى أن من يبحث عنها غير موجودة فيه. وفي غضون ثلاث ساعات سيكون في لندن من دون أن يعرف غاية سفره إليها، وهو لا يملك من المال إلا ما يكفيه لشراء تذكرة العودة. تملّكته الحيرة، فقام وخرج إلى الرصيف وقد استبدّت به رغبة غامضة في العودة إلى البيت. ولكن كيف سيدخل من دون مفاتيح؟ لقد تركها على الطاولة الصغيرة عند المدخل. هو يدرك الآن، وقد عاد إليه صفاء ذهنه، أن تصرفه ليس سوى عبث عاطفي: إن حارسة العمارة تملك نسخة من ذلك المفتاح، وستسلمه له بطبيعة الحال. نظر بحيرة إلى أقصى الرصيف، فلاحظ أن كل المخارج كانت موصدة، فاستوقف شرطيا وسأله عن طريقة الخروج من هناك، فشرح له الشرطي أن الخروج غير متاح لأسباب أمنية. فعندما يدخل المسافر إلى القطار، لا يعود بإمكانه المغادرة، فيكون بذلك ضمانة حيّة على أنه لم يزرع فيه قنبلة. هناك إرهابيون أسلاميون وإرهابيون إيرلنديون لا يحلمون بشيء سوى ارتكاب مجزرة في النفق البحري.

ركب القطار ثانية، فابتسمت له إحدى مراقبات القطار. كل الموظفين يبتسمون له فقال في نفسه: بالابتسامات المكرورة

والمكثفة تتم مصاحبة هذا الصاروخ المنطلق في نفق الموت؛ هذا الصاروخ الذي يبدو فيه مقاتلو الملل، سياح أمريكيون وألمان وإسبان وكوريون، مستعدين للمخاطرة بأنفسهم من أجل معركتهم الكبرى. جلس، وما كاد القطار يتحرك، حتى غادر مقعده وراح يبحث عن شانطال.

دخل مقطورة في الدرجة الأولى. كان في أحد جانبَيْ الممرّ صفّ من المقاعد لشخص واحد، وفي الجانب الآخر مقاعد لشخصين. وفي الوسط كانت المقاعد متقابلة بحيث كان الركاب يتبادلون أطراف الحديث فيها بشكل صاخب، ولمح شانطال بينهم. رآها من الخلف: تعرّف على شكل رأسها المميز والغريب، بتسريحته البعيدة عن الموضة. كانت جالسة بجوار النافذة، تشارك في المحادثة التي كانت حامية. لا يمكن أن يكون هولاء سوى زملاء العمل. فهي لم تكذب إذن! ومهما بدا الأمر غير محتمل، فهي لم تكذب.

ظل بلا حراك يسمع ضحكاتهم. ميّز ضحكة شانطال من بينها. كانت ضحكة مبتهجة. نعم، كانت مبتهجة، مما ضاعف عذابه. وظلّ يراقب حركاتها المفعة بحيوية لم يعهدها فيها. لم يكن يسمع

ما كانت تقول، ولكنه كان يرى يدها تعلو وتنخفض باندفاع، وهذه اليد كان يستحيل عليه التعرّف إليها. كانت يد شخص آخر. لم يشعر بأن شانطال كانت تخونه، بل شعر بشيء آخر: تهيأ له أنها لم تعد موجودة بالنسبة إليه، وأنها مضت إلى مكان آخر، إلى حياة أخرى، حياة أخرى لن يعود يتعرف عليها لو صادفها فيها.

42

قالت شانطال بنبرة قتالية: «كيف أمكن أن يصير التروتسكاوي مؤمنا؟ أين هو المنطق؟

-صديقتي العزيزة، تعرفين عبارة ماركس الشهيرة: تغيير العالم.

-بكل تأكيد.»

كانت شانطال تجلس بجوار النافذة، قبالة كبرى زملائها سنا في العمل، تلك المرأة المميزة بأصابعها المكسوة بالخواتم، وبجانبها جلس «لوروا» الذي قال متابعا: «ثم إن قرننا أتاح لنا بأن ندرك شيئا

عظيما: الإنسان عاجز عن تغيير العالم، ولن يستطيع تغييره قط. إنها الخلاصة الأساسية لخبرتي كمناضل ثوري، هذا فضلا عن أنها خلاصة حولها إجماع ضمني. لكن هناك خلاصة أخرى تمضي إلى ما هو أبعد، وهي ذات طبيعة لاهوتية، تقول: لا يُمنع على الإنسان أن يغير ما خلقه الله. ينبغي المضيّ بهذا المنع إلى منتهاه.»

نظرت إليه شانطال بافتتان: لم يكن يتكلم كمن يعطي دروسا، بل كمحرّض، وهذا ما كانت تحبه فيه شانطال: نبرته الجافة هذه، المعهودة في التقليد المقدس للثوار أو الطلائعيين، والتي تحوّل كل ما يفعله إلى تحريض. فهو لا يغفل أبدا «إذهال البرجوازي»، حتى لو كان يقول حقائق مصطلح عليها. ثم، ألا تصير الحقائق الأكثر استفزازا (الموت للبورجوازيين!) حقائق مألوفة حين تصل إلى السلطة؟ في أي وقت من الأوقات يمكن أن يصير العُرف استفزازا والاستفزاز عرفا. المهم هو الرغبة في المضي بالموقف حتى النهاية. وتخيّلت شانطال «لوروا» في اجتماعات ثورة 1968 الطلابية العاصفة وهو ينطق بطريقته الذكية والمنطقية الجافة التي يعجز الحس السليم عن مقاومتها: ليس من حق البورجوازية أن تعيش، والفن الذي لا

تفهمه الطبقة العاملة ينبغي أن يزول، والعلوم التي تخدم مصالح البورجوازية لا قيمة لها، وأولئك الذين يلقّنون تلك العلوم ينبغي طردهم من الجامعة. لا حق لأعداء الحرية في الحرية. وكلما زادت الجملة التي يتلفّظ بها عبثيّة، زاد زهوه بها، لأن الذكاء الخارق وحده هو الذي يستطيع شحن الأفكار التافهة بمعنى منطقي.

أجابت شانطال: «أتفق معك، فأنا أيضا أعتقد أن كل التغييرات ضارة، وفي هذه الحالة يكون من واجبنا حماية العالم من التغيير. ولكن هيهات، فالعالم لا يستطيع إيقاف السباق المحموم لتحولاته...

قاطعها «لوروا»: -... والذي لا يشكل الإنسان -مع ذلك- غير أداة من أدواته البسيطة. ذلك أن اختراع القاطرة يحمل في رحِمه تصميم الطائرة، التي تقود بدورها ضرورة إلى الصاروخ؛ وهذا المنطق مضمَّن في الأشياء ذاتها؛ بعبارة أخرى، هو جزء من المشروع الإلهي. يمكنكم استبدال الإنسانية بأخرى، ولكن ذلك لن يغير في شيء التطور الذي يقود من الدراجة إلى الصاروخ. فليس الإنسان هو صانع هذا التطور، بل هو منفِّذه فحسب، هو منفذ بئيس

لأنه جاهل بما ينفذ. هذا المعنى لا ينتمي للإنسان، بل ينتمي للرب، وما وجودنا هنا إلا لنمتثل له كي يفعل ما يشاء.»

أغمضت عينيها: فتبادرت إلى ذهنها كلمة «اختلاط» العذبة، ونفذت إلى نفسها، فنطقت في نفسها بصمت: «اختلاط الأفكار». كيف أمكن لهذه المواقف المتناقضة أن تتناوب في رأس واحدة كما تتناوب عشيقتان في السرير نفسه؟

في الماضي كان ذلك يغضبها، أما اليوم فإنه يبهجها: لأنها كانت تدرك أن التعارض بين ما كان «لوروا» يقوله في الماضي وما يقوله اليوم لا أهمية له، لأن كل الأفكار متماثلة، لأن كل التصريحات والمواقف متساوية القيمة، قابلة للتناحر والتقاطع والتلامس والتمازج، ولأن تداعب بعضها بعضا،- ويضاجع بعضها بعضا.

وتعالى قبالة شانطال صوت لطيف مرتعش قليلا: «ولكن في هذه الحالة، لماذا نحن هنا في هذه الدنيا؟ لماذا نحيا؟»

كان ذلك الصوت صوت السيدة الأنيقة الجالسة بجوار «لوروا» المفتونة به. وتخيّلت شانطال «لوروا» محاطا بامرأتين عليه أن يختار إحداهما: سيدة رومانسية، وأخرى بذيئة؛ وسمعت الصوت

الهامس المتوسّل الذي لا يريد هجر معتقداته الجميلة، لكنه يدافع عنها (حسب خيال شانطال) برغبة خفية في رؤية بطلها الشيطاني يهمّ بهدمها، وفي هذه الأثناء يلتفت إليها ذلك البطل قائلا: «لماذا نحيا؟ لكي نوفّر للرب اللحم البشري، لأن الإنجيل، سيدتي العزيزة، لا يطلب منا البحث عن معنى الحياة، بل يطلب منّا التناسل. أحبوا بعضكم بعضاً وتناسلوا. افهمي جيدا: فمعنى «أحبوا بعضكم بعضاً» محكوم بـ«تناسلوا». معنى أحبوا بعضكم بعضاً إذن لا يعني بأي حال من الأحوال الحب الإنساني، المتعاطف، الحب الروحي أو العاطفي، بل يعني ببساطة: «تناكحوا!» «تجامعوا»... (جعل صوته أجمل، وانحنى عليها:)... «تناكحوا!» (ونظرت السيدة في عينيه باستسلام تلميذ مخلص) «ففي هذا وحده يكمن معنى الحياة الإنسانية، وكل ما عدا هذا هراء.»

كان استدلال «لوروا» قاطعا مثل شفرة حلاقة، وكانت شانطال متفقة معه: لا وجود للحب بوصفه نشوة بين شخصين، بوصفه إخلاصا، تعلقا عاطفيا بشخص واحد. وحتى إذا وجد، يكون مثل عقاب ذاتي، وعمى إرادي، وهروب إلى دير. وقالت في نفسها:

حتى لو كان الحب موجودا، فلا ينبغي له أن يوجد. ولم تشعرها هذه الفكرة بالمرارة، بل شعرت، على العكس من ذلك، بغبطة تسري في جسمها؛ وفكرت في مَجَاز الوردة التي تخترق كل بنى الإنسان، وقالت في نفسها إنها عاشت في سجن الحب، وهي مستعدة الآن للخضوع لأسطورة الوردة والامتزاج بعطرها المُسكر. وعند هذه النقطة من تأملاتها تذكرت جان مارك، وتساءلت بلا انفعال: أيكون بقي في البيت؟ أم خرج؟ كما لو كانت تتساءل عما إذا كانت السماء تمطر في روما، أو ما إذا كان الجو جميلا في نيويورك.

مع ذلك، ومهما أظهرت من لامبالاة تجاه جان مارك، فإن ذكراه أرغمتها على الالتفات إلى الخلف. رأت في مؤخرة العربة شخصا يستدير، ويتوجه إلى العربة المجاورة. وتهيأ لها أنه جان مارك يحاول أن يتجنب نظرتها. أهو حقا جان مارك؟ وعوض أن تبحث عن جواب لهذا السؤال، نظرت عبر النافذة: كانت المناظر تبدو أقبح فأقبح، والحقول تميل أكثر فأكثر إلى اللون الرمادي، و تبدو السهول مخترقة بعدد أكبر فأكبر من الأعمدة المعدنية وبنايات الاسمنت والأسلاك. وأعلن صوت المكبر بأن القطار سينزل في

الثواني الموالية إلى ما تحت البحر. وفعلا رأت ثقبا دائريا أسود كان القطار على أهبة التسلل منزلقاً بداخله مثل أفعى.

43

«إننا ننزل» قالت المرأة الأنيقة بصوت يخفي شعورا بالتوتر.

أضافت شانطال التي كانت تعتقد أن «لوروا» ما زال يتوق إلى أن تظل السيدة أكثر سذاجة واندهاشا وتوترا: «إلى الجحيم». وشعرت بنفسها أنها صارت مساعدته الشيطانية، وراقتها فكرة أن تسوق هذه السيدة الأنيقة المتحفّظة إلى سريره الذي لم تتصوره في فندق فاخر من فنادق لندن، بل تخيلته موضوعا على منصة وسط النيران والأنين والدخان والشياطين.

لم يعد يظهر شيء من النافذة، فقد كان القطار داخل النفق، وشعرت بأنها تبتعد عن أخت زوجها وجان مارك، تنأى عن كل مراقبة وكل تجسس، وعن حياتها التي تلتصق بها، وتثقل عليها.

ثم تبادرت إلى ذهنها عبارة: «مختفون عن الأنظار». وفوجئت بأن السفر من أجل الاختفاء لم يبد لها كئيبا، بل بدا، في ضوء ميثولوجيتها الوردية، ناعما وبهيجا.

قالت السيدة المتوترة: -إننا ننزل أعمق فأعمق.

فقالت شانطال: -إلى هناك حيث توجد الحقيقة.

وردّ «لوروا»: -هناك توجد الإجابة عن سؤالك: لِمَ نحيا؟ ما الشيء الجوهري في الحياة؟» ثم حدج السيدة بنظرة ثاقبة وأضاف: «الشيء الجوهري في الحياة هو الحفاظ على استمرارها: إنها الولادة وما يسبقها، أي الجماع، وما يسبقه، الإغراء، أي القُبل والشَّعر المنساب مع الريح، والسراويل وحاملات الصدر؛ ثم كل ما يجعل الرجال قادرين على الجماع، أي الطعام، وهو ليس الطعام الباذخ الذي لم يعد يعجب أحدا، بل الطعام الذي يستهلكه سائر الناس؛ وما يستتبعه الطعام من براز، لأنك تعلمين يا سيدتي العزيزة، يا سيدتي الجميلة المحترمة، تعلمين أي مكانة مرموقة يحتلها في مهنتنا امتداح ورق المرحاض وحفاظات الأطفال. ورق المرحاض وحفاظات الأطفال والغسيل والمأكل. إنها دائرة الإنسان المقدسة. وليست مهمتنا

هي اكتشافها وفهمها ورسم حدودها فحسب، بل أيضاً تجميلها وتحويلها إلى نشيد. فبفضل نفوذنا يكاد ورق المراحيض يقتصر على اللون الوردي، وإنه لأمر دال أنصحك، سيدتي العزيزة القلقة، أن تتأمّليه بتمعّن.

فقالت السيدة بصوت مرتعش كشكوى امرأة مغتصبة: لكنها التعاسة، التعاسة، التعاسة وقد جرى تزيينها! ونحن هم مزينو التعاسة!

فردّ «لوروا»: «نعم، بالضبط»، وسمعت شانطال في كلمة «بالضبط» تلك اللذة التي كان يستمدها «لوروا» من شكوى السيدة الأنيقة.

«ولكن في هذه الحالة، أين عظمة الحياة؟ فمن نحن إذا كانت حياتنا مقصورة على الأكل والجماع وورق المراحيض؟ وإذا لم نكن قادرين إلا على هذه الأمور، فأي فخر نشعر به من أننا، كما يقال لنا، كائنات حرة؟»

نظرت شانطال إلى السيدة وقالت في نفسها إنها تصلح ضحيةً لحفلة متهتكة. وتخيّلت ملابسها تُنزع، وجسدها العجوز الأنيق يُقيّد،

وهي تُجبر على ترديد حقائقها الساذجة بصوت مرتفع متضرّع، بينما الحاضرون من حولها يمارسون الجنس ويعرضون أجسادهم...

قاطع «لوروا» استيهامات شانطال: «الحرية؟ بِعَيْش المرء تعاسته، قد يكون شقيا أو سعيدا. فحريتك تتمثل في هذا الاختيار. أنت حرة في تذويب فردانيتك في طنجرة الجماعة مع شعور بالإخفاق أو بالغبطة. إن حريتنا، يا سيدتي العزيزة، في الغبطة.»

شعرت شانطال بابتسامة ترتسم على محياها. احتفظت في ذهنها بما قاله «لوروا»: حريتنا الوحيدة تكمن في الاختيار بين المرارة واللذة. إن تفاهة الوجود هي قدرنا، لذلك لا ينبغي أن نعيشها كإعاقة، بل ينبغي أن نعرف كيف نلتذّ بها. نظرت إلى وجه «لوروا» البارد، الذي كان يشع منه ذكاء يجمع بين الفتنة والشذوذ. كانت تنظر إليه بودّ، ولكن من دون اشتهاء، وقالت في نفسها (كما لو كانت تزيح بيدها الحلم السابق): لقد حوّل كل طاقته الذكورية منذ زمن بعيد إلى هذه القوة المنطقية الحادة، إلى هذه السلطة التي يمارسها على زملائه في العمل. تخيّلت نزولهم من القطار، بينما استمرّ «لوروا» في تخويف السيدة المفتونة بأفكاره. سوف تمضي لتختفي في كشك

هاتف لكي تفلت منهم جميعا.

44

غادر اليابانيون والأمريكيون والإسبان والروس القطار، وقد علقوا كلهم آلات تصوير حول أعناقهم، وكان جان مارك يحاول ألا تغيب شانطال عن بصره. وضاق المد البشري الواسع فجأة تحت الرصيف عبر سلّم متحرك. ولما بلغ الرواق الموجود أسفل السلّم، اعترض طريقه رجال يحملون كاميرات، يتبعهم حشد من الفضوليين بحيث أجبروا المسافرين النازلين من القطار على التوقف؛ وبينما كان أطفال ينزلون سلّما جانبيا، سُمعت تصفيقات وصيحات. كانوا جميعهم يضعون خوذات مختلفة الألوان على الرؤوس، كما لو أنهم فرقة رياضية من متسابقي الدراجات النارية أو من المتزلجين. هم الذين كانت الكاميرات تصوّرهم. وقف جان مارك على أطراف أصابعه حتى يلمح شانطال من فوق الرؤوس، وتمكّن من ذلك أخيرا.

كانت على الجانب الآخر من صف الأطفال، داخل كشك هاتف، تضع السماعة على أذنها وتتحدّث. حاول أن يشق لنفسه طريقا وسط الحشد، فأوقع أحد المصورين، فقام المصور غاضبا، وسدّد له ركلة، فضربه جان مارك بمرفقه حتى كادت الكاميرا تسقط من يده. هبّ إليهما شرطي وأمر جان مارك أن ينتظر حتى ينتهي التصوير. وفي تلك اللحظة، عندما كانت شانطال خارجة من المخدع، التقى نظره بنظرها لثانية أو ثانيتين، فاندفع من جديد لعلّه يخترق الحشد، لكن الشرطي لوى ذراعه بطريقة مؤلمة إلى حد أنه انثنى حتى لمس قدميه، فغابت بذلك شانطال من مجال بصره.

مرّ آخر طفل ممن يلبسون الخوذات، وعندها فقط حرّره الشرطي، فنظر نحو كشك هاتف، لكنه كان فارغا. توقّف بالقرب منه مجموعة من الفرنسيين تعرّف بينهم على زملاء شانطال.

سأل فتاة شابة: «أين شانطال؟»، فأجابته بنبرة لائمة: «أنت من عليه أن يعرف! كانت مبتهجة جدّا! لكنها اختفت عندما غادرنا القطار!»

بادرته فتاة أخرى بدينة بضيق: «رأيتك في القطار. كنت تومئ لها.

رأيت كل شيء. لقد أفسدت كل شيء.»

وقاطعهم صوت «لوروا»: «لِنَذهب!»

فسألته الفتاة الشابة: «وشانطال؟»

-إنها تعرف العنوان.

قالت السيدة الأنيقة ذات الأصابع المكسوّة بالخواتم: «هذا السيّد يبحث عنها أيضا.»

كان جان مارك يعلم أن «لوروا» يعرفه من بعيد مثلما هو يعرفه. حيّاه قائلا: «صباح الخير»

-صباح الخير، أجابه «لوروا»، ثم تابع: رأيتك تتشاجر، كنت تواجه جماعة بمفردك.

وتهيّأ لجان مارك أن في صوته شيء من الودّ. وسط هذا الغم الذي ألمّ به، رأى فيه يدا ممدودة همّ بالإمساك بها؛ رأى فيه، لثانية واحدة، بارقة صداقة مفاجئة بين رجلين مستعدّين للتعاون، حتى وإن كانا لا يتعارفان. كان كما لو أنه هبط عليه حلم جميل قديم.

قال له بوثوق: «هل يمكن أن تمدّني برقم هاتف فندقكم؟ أودّ الاتصال لمعرفة ما إذا كانت شانطال هناك.»

صمت «لوروا» برهة، ثم سأله: «ألم تُعطك إياه؟»

-لا.

قال له بلطف يكاد يخالطه الأسف: «في هذه الحالة، المعذرة، لا أستطيع إعطائك الرقم.»

تلاشت البارقة، ومن جديد أحسّ جان مارك بألم في كتفه من أثر مسكة الشرطي. غادر المحطة وحيدا، وراح يمشي على غير هدى في الشوارع، وهو لا يدري إلى أين يسير.

أخرج من جيبه الأوراق النقدية، وعدّها من جديد. لم يكن معه إلا ما يكفي لاقتناء تذكرة العودة، ولا شيء أكثر من ذلك. بإمكانه الرجوع لو شاء، وسيكون في باريس مساء. إنه القرار الحكيم بكل تاكيد. ماذا سيفعل هنا؟ لا شيء. ومع ذلك فهو لا يستطيع العودة، لن يقرر العودة أبدا. لا يستطيع ترك لندن وشانطال فيها.

لكن، بما أنه ملزم بالحفاظ على النقود لرحلة العودة، فهو لا يستطيع النزول بفندق، ولا يستطيع شراء حتى ساندويتش. أين سيقضي ليلته؟ وأدرك من فوره أن ما كان يقوله دائما لشانطال آخذ في التحقق: إن لديه نزوعا عميقا لأن يكون هامشيا. صحيح أنه هامشي

عاش في الترف، لكن ذلك كان بفعل ظروف غامضة وعارضة. وها هو يُقذف به فجأة بين من ينتمي إليهم: الفقراء الذين ليس لهم مأوى يستر تخلي الآخرين عنهم.

تذكر أحاديثه مع شانطال، وشعر بحاجة طفولية لأن تكون أمامه حتى يقول لها فقط: أخيرا يتأكد لك أنني محقّ، فأنا لم أخدعك، أنا فعلا شخص هامشي لا مأوى له، متشرد.

45

حلّ الليل وبرد الجو. سار في شارع يحدّه من جهة صفّ من المنازل، ومن الجهة المقابلة حديقة محاطة بسياج مصبوغ بالأسود. هناك على الرصيف الممتدّ على طول الحديقة جلس على مقعد خشبي طويل. شعر بتعب شديد، ورغب في التمدد ووضع قدميه على الكرسي. وقال في نفسه: من الأكيد أن الأمر يبدأ هكذا. يضع المرء قدميه على الكرسي يوما، وعندما يحلّ الليل ينام هناك. وبهذه الطريقة يدخل عالم المتشردين، ويصير واحداً منهم.

لهذا قاوم التعب بكل ما أوتي من قوى، وظل جالسا بشكل مستقيم كما يجلس تلميذ نجيب في قاعة الدرس. كانت تنتصب الأشجار خلفه؛ وقبالته، في الجانب الآخر من الطريق، اصطفت المنازل. كلها متشابهة، بيضاء، مكونة من طابقين، يحيط بمدخلها عمودان، ولها أربعة نوافذ في كل طابق. كان ينظر بانتباه لكل المارة الذين يعبرون هذا الشارع المهجور. وقرر ألا يبرح مكانه حتى يرى شانطال. فكلّ ما كان بوسعه أن يفعله من أجلها ومن أجلهما معا، هو انتظارها.

وفجأة، على بعد ثلاثين مترا إلى اليمين، أُنيرت الأضواء في كل نوافذ أحد المنازل، وفي الداخل سحب أحدهم ستائر حمراء. فقال في نفسه إن مجموعة من الأصدقاء اجتمعوا هناك من أجل الاحتفال، لكنه استغرب لأنه لم ير أحدا يدخل البيت. أكانوا جميعهم بالداخل منذ وقت طويل، ولم يشعلوا الأضواء إلا في تلك اللحظة؟ أم أنه غفا، من دون أن يشعر، فلم يلحظ دخولهم؟ يا إلهي، ماذا لو أن النوم فوّت عليه فرصة لقاء شانطال؟ وسرعان ما صعقته فكرة حفلة تهتكية، وسمع عبارة: «أنت تعلم لِمَ لندن»، ثم بدت له عبارة «أنت

تعلم جيدا» بمعنى مختلف: فلندن هي بلد الإنجليزي البريطاني «بريطانيكوس»، إذن فهو من كانت تهاتف في المحطة، ومن أجله تملّصت من «لوروا» ومن زملائها، تملّصت منهم جميعا.

وتملكته غيرة عظيمة ومؤلمة، وهي ليست غيرة مجردة وذهنية، كتلك التي شعر بها عندما كان أمام الخزانة المفتوحة، وطرح على نفسه سؤالا نظرياً حول استعداد شانطال لخيانته؛ بل هي غيرة شبيهة بتلك التي شعر بها في شبابه. الغيرة التي تخترق الجسم وتؤلمه. غيرة لا تطاق. تخيل شانطال وهي تسلّم نفسها لغيره بطواعية وإخلاص، فلم يقوَ على الصبر. قام ورَكَض باتجاه المنزل ذي الباب الأبيض المضاء بفانوس. أدار المقبض، فانفتح. دخل ورأى سلّما مكسوّا ببساط أحمر، ثم سمع أصواتا في الطابق العلوي، فصعد السلّم. ولمّا بلغ بسطة درج الطابق الأول الواسعة، التي تشغل كل عرضها علاقة ثياب طويلة علقت عليها معاطف، ولكن أيضا (وهي صعقة أخرى) فساتين نسائية وبعض القمصان الرجالية. شقّ طريقه مسعورا وسط تلك الألبسة حتى وصل إلى باب كبير، أبيض هو أيضا، بمصراعين؛ فشعر بيد قاسية تمسك به من الكتف الذي يؤلمه. استدار فأحسّ

على وجنته بنفس رجل مفتول العضلات، يرتدي قميصا، يكشف عن معصمين موشومتين، ويتحدث إليه بالإنجليزية.

بذل قصارى جهده للتخلص من تلك اليد التي كانت تؤلمه أكثر فأكثر، وتدفعه نحو الدّرَج. وفي هذه الأثناء، وهو يحاول أن يقاوم، فقد التوازن، ولم يستطع التمسك بقضبان الدرابزين إلا في اللحظة الأخيرة. نزل الدرج مدحورا، والرجل الموشوم يتعقبه، ولما وقف مترددا أمام الباب، صرخ في وجهه بالإنجليزية، ورفع يده مشيرا له بالخروج.

46

كانت صورة الحفلة التهتكية تصاحب شانطال منذ مدة طويلة في أحلامها الغامضة، وفي تخيلاتها، بل حتى في خلال أحاديثها مع جان مارك الذي قال لها ذات يوم (بعيد جدا): أودّ حضور هذه الحفلة معك، لكن بشرط: أن يتحول كل مشارك من المشاركين في

لحظة الشهوة إلى حيوان، أحدهم إلى كبش، وآخر إلى ثور، وثالث إلى تيس، بحيث تصير حفلة ديونيزوس التهتكية حفلة رعوية نبقى فيها وحدنا وسط الدواب مثل راع وراعية. (كانت هذه الاستيهامات الشاعرية تسلّيها، لأن المشاركين في الحفلة يحثون السير نحو بيت الرذيلة جاهلين أنهم سيغادرونه وقد تحولوا إلى أبقار.)

رأت نفسها محاطة بأناس عراة، وكانت تلك هي اللحظة التي تفضل فيها النعاج على بني البشر. ولما لم تعد ترغب في رؤية أحد، أغلقت عينيها، لكنها ظلت تراهم خلف جفنيها. ظلت ترى أعضاءهم، منها ما انتصب، ومنها ما تقلص، ومنها الضخم، ومنها الضئيل. تخيّلت ذلك المشهد مثل حقل تنتصب فيه ديدان الأرض، تنثني، وتتلوى، ثم تعاود السقوط. بعد ذلك لم تعد ترى ديدان الأرض، بل ثعابين. فشعرت بالتقزز، لكنها ظلت مع ذلك مهتاجة، وإن كان ذلك الاهتياج لا يشعرها بالرغبة في الجماع ثانية، بل على العكس. فكلما زاد اهتياجها، زاد نفورها من هذا الاهتياج الذي يجعلها تشعر بأن هذا الجسد ليس ملكا لها، بل ملك لهذا الحقل الموحل، حقل الديدان والثعابين.

فتحت عينيها فرأت امرأة قادمة نحوها من الغرفة المجاورة. وقفت عند الباب المشرع، ورمقتها بنظرة إغراء كأنما تريد انتزاعها من هذه الحماقة الذكورية، من مملكة الديدان تلك. كانت امرأة طويلة القامة، فاتنة البنية، ذات شعر أشقر يحيط بوجه جميل. وفي اللحظة التي كانت فيها شانطال تهم بالاستجابة لندائها الصامت، كوّرت الشقراء شفتيها، وأخرجت اللعاب من خلالهما، وتراءى هذا الفم لشانطال كما لو جرى تكبيره بعدسة مكبرة قوية. كان اللعاب أبيض اللون، مليئا بفقاعات هواء صغيرة. ومضت المرأة تُدخل رغوة اللعاب هذه وتخرجها كما لو كانت تريد إغراءها، كما لو كانت تعِدُها بقبلات حنونة رطبة، تنصهر من خلالها الواحدة في الأخرى.

ظلت شانطال تنظر إلى اللعاب المتلألئ المرتعش الذي يسيل على الشفتين، فصار نفورها غثيانا. استدارت لكي تهرب خفية، لكن الشقراء ما لبثت أن أمسكت بيدها من الخلف. تحررت شانطال من القبضة، وخطت خطوات إلى الأمام. ولما شعرت بيد الشقراء تلمس جسدها من جديد، أخذت تجري. وسمعت أنفاس مُطارِدتها التي اعتقدت جازمة أن هروبها لعبة جنسية. وشعرت بنفسها محاصرة:

فكلما أجهدت نفسها في الهروب، زاد اهتياج الشقراء التي جذبت مطاردين آخرين تعقبوها كما لو كانت فريسة.

سلكت ممرا وسمعت خلفها وقع خطوات، وشعرت بنفور شديد من الأجساد التي تطاردها إلى حدّ استحال معه نفورها إلى ذعر: كانت تعدو كما لو أنها تفعل ذلك للنجاة بحياتها. كان الممر طويلا ينتهي بباب مُشّرَع يقود إلى غرفة صغيرة مبلَّطة، في إحدى زواياها باب، فتحته ثم أغلقته خلفها.

استندت في الظلام إلى الجدار حتى تستعيد أنفاسها، ثم أخذت تتحسس محيط الباب، وأضاءت النور. كانت غرفة ضيقة جدا وضعت فيها مكنسة كهربائية ومكنسات يدوية ومماسح من الخيش؛ وعلى الأرضية، فوق كومة من الخرق، تكوّر كلب. ولما لم تعد تسمع أي صوت في الخارج، قالت في نفسها: حان وقت الحيوانات، وأنا قد نجوت. ثم سألت الكلب بصوت مرتفع: «مَن أنت مِن هؤلاء الرجال؟»

وفجأة أربكها ما قالت، وتساءلت: يا إلهي، من أين جاءتني فكرة أن يصير الناس في نهاية الحفلة التهتكية حيوانات؟

استغربت الأمر: لم تعد تعرف مصدر هذه الفكرة. بحثت في ذاكرتها، فلم تجد شيئا. كل ما شعرت به إحساس لطيف لم يوح لها بأي ذكرى ملموسة، شعور مُلغِز، سعيد بشكل يتعذر تفسيره، مثل خلاص آت من بعيد.

فُتح الباب بغتة بشدة، ودخلت امرأة ضئيلة سوداء تلبس وزرة خضراء. رمقت شانطال بنظرة قصيرة غير مكترِثة، لا دهشة فيها. تنحّت شانطال خطوة لتسمح لها بأخذ المكنسة الكهربائية الكبيرة وإخراجها.

وهكذا دنت من الكلب الذي كشر عن أنيابه مزمجرا. غمرها الرعب من جديد، فخرجت.

47

كانت في الممر، ولم تكن تشغلها غير فكرة واحدة: العثور على بسطة الدرج حيث العلاقة التي علّقت عليها ملابسها، لكن الأبواب

التي أدارت مقابضها كانت كلها مقفلة. ودخلت أخيرا إلى الصالون من الباب الكبير المفتوح، فبدا لها رحبا وفارغا بشكل غريب. كانت المرأة السوداء ذات الوزرة الخضراء قد شرعت في تنظيفه بالمكنسة الكهربائية الكبيرة، ولم يكن قد بقي من الحاضرين غير بعض الرجال كانوا يتحدثون بصوت خفيض فيما بينهم وقوفا. كانوا قد ارتدوا ملابسهم، ولم يعيروا أي اهتمام لشانطال التي ظلّت تراقبهم بخجل عندما تنبّهت فجأة لعريها غير اللائق. رأت رجلا آخر في السبعين من عمره يرتدي قميص حمام أبيض وشبشب يقصدهم ويتحدث إليهم.

ظلت تفكر في مخرج، لكن بدا لها أن ترتيب مواقع الغرف قد تُغيّر في هذا الفضاء الممسوخ، وهذا الإقفار غير المتوقّع. ولم تعد قادرة على التعرف حتى على نفسها. رأت باب الغرفة المجاورة، حيث حاولت الشقراء استمالتها باللعاب، مشرعاً، فتسللت مبتعدة عنهم، ووجدت الغرفة خالية. وقفت باحثة عن منفذ، فلم تعثر لها على منفذ.

عادت إلى الصالون ولاحظت أن الرجال الذين كانوا هناك انصرفوا. لماذا لم تكن أكثر تيقظا؟ كان بوسعها أن تتبعهم! لم يبق

هناك غير الرجل السبعيني مرتديا قميص الحمام. تلاقت نظراتهما، فتعرفت إليه. تقدمت منه بحماس نابع من ثقة مفاجئة: «لقد هاتفتك، أتذكر؟ طلبت مني القدوم، لكن عندما وصلت لم أجدك!

فأجابها بلطف، من دون أن يعيرها أي اهتمام: «أعلم، أعلم، المعذرة؛ لم أعد أشارك في هذا اللعب الصبياني»، ثم توجه نحو النوافذ، وشرع يفتحها الواحدة تلو الأخرى، فسرى في الصالون تيار هواء قوي. فقالت شانطال باضطراب: «أنا سعيدة بالعثور على شخص أعرفه.

-ينبغي التخلص من هذه النتانة.

-قل لي كيف أعثر على بسطة الدرج. لقد تركت هناك كل أغراضي.

فأجابها: «تريثي»، ثم ذهب إلى زاوية من الصالون حيث عثر على كرسي منسي هناك، وأحضره لها: «اجلسي، سأهتم بك بمجرد أن أفرغ.»

كان الكرسي موضوعا وسط الصالون، فجلست عليه باستسلام. توجه الرجل السبعيني نحو المرأة السوداء، واختفيا معا في الغرفة

المجاورة. هناك من خلال ضجة المكنسة الكهربائية سمعت الرجل السبعيني يعطي أوامر، ثم سمعت بضع طرقات مطرقة. وتساءلت بدهشة: مطرقة؟، من يشتغل هنا بالمطرقة! لم تر أحدا! ربما جاء أحدهم! ولكن من أين دخل؟

رفع تيار الهواء الستائر الحمراء عند النوافذ، فشعرت شانطال، التي جلست عارية على الكرسي، بالبرد، وسمعت من جديد طرقات المطرقة، فانتابها الخوف، وفهمت ما يجري: كانوا يسمرون الأبواب! لن تخرج من هنا أبدا! واستبدّ بها إحساس عارم بالخطر. قامت عن الكرسي، وخطت ثلاث خطوات أو أربع، ثم توقفت لأنها لم تعد تدري أين تذهب. ودّت لو تصرخ طلبا للنجدة، ولكن من سيهبّ لنجدتها؟ وفي لحظة القلق الكبير هذه، عاودتها صورة رجل يصارع الحشد لكي يصل إليها، فلوى أحدهم ذراعه خلف ظهره. لم تر وجهه، بل رأت فقط جسده المقوّس. يا إلهي، كانت تريد أن تتذكره بوضوح أكثر، أن تستعيد قسماته، لكن بلا جدوى. كل ما تعلمه عنه أنه الرجل الذي يحبها، وهذا كل ما يهمها الآن. رأته في هذه المدينة، وبذلك لن يكون بعيدا عنها. وتمنّت لو تعثر عليه

في أسرع وقت ممكن، ولكن كيف لها ذلك؟ فالأبواب مسمرة! ثم رأت ستارا أحمر يرفرف قرب إحدى النوافذ. النوافذ! إنها مشرعة! ينبغي أن تتقدم نحو النوافذ! أن تصرخ في الشارع! بل قد تقفز إلى الخارج إذا لم تكن النافذة شديدة الارتفاع! ثم سمعت طرقة مطرقة، ثم أخرى. يجب أن تتصرف الآن وإلا لن يعود بإمكانها أن تفعل شيئا أبدا. فالزمن يعمل ضدها، إنها فرصتها الأخيرة لكي تتصرف.

48

عاد إلى المقعد الذي لا يكاد يُرى في الظلمة التي انتشرت بين عمودي الإنارة المتباعدين والوحيدين في الشارع.

همّ بالجلوس، فسمع صرخة جعلته ينتفض. شتمه رجل كان قد احتل المقعد أثناء غيابه، فانصرف من دون احتجاج. قال في نفسه: لقد انتهى الأمر، هذا هو وضعي الجديد، من الآن فصاعدا عليّ أن أصارع من أجل ركن صغير أنام فيه.

توقف في الجهة الأخرى من الطريق حيث يضيء قبالته الفانوس المعلق بين عمودي باب المنزل الذي طرد منه قبل دقيقتين، وجلس على الرصيف مسندا ظهره إلى سياج الحديقة الحديدي.

أخذ المطر يتساقط رذاذا، فرفع ياقة سترته، ومضى يراقب المنزل. وفجأة شرعت النوافذ تُفْتح الواحدة تلو الأخرى، وطفقت الستائر الحمراء المسحوبة إلى الجانبين تخفق مع النسيم متيحة له رؤية السقف الأبيض المضاء. ماذا يعني هذا؟ لم يخرج أحد! قبل لحظات كان يحترق بنار الغيرة، لكنه الآن لم يعد يشعر إلا بالخوف، الخوف على شانطال. فهو يريد أن يفعل أي شيء من أجلها، لكنه لا يدري ما عليه فعله. وما شقّ عليه تحمّله هو أنه لا يعرف كيف يساعدها، مع أنه الوحيد الذي يستطيع ذلك. هو الوحيد، لأنه ليس لها سواه في هذا العالم، لا أحد في أي مكان من هذا العالم.

وقف وقد بللت وجهه الدموع، وخطا بضع خطوات باتجاه المنزل، ثم صاح باسمها.

49

توقف الرجل السبعيني أمام شانطال وهو يحمل في يده كرسيا آخر، وقال لها: «إلى أين تريدين الذهاب؟»

تفاجأت عندما رأته أمامها. وشعرت في خضمّ هذا الارتباك الكبير بموجة من الحرارة تصعد من أعماق جسمها، فتملأ بطنها وصدرها، وتغشى وجهها. هي تلتهب. هي عارية تماما وحمراء بكاملها، ونظرات الرجل المصوبة على جسدها تجعلها تحسّ بكل قطعة من عريها الملتهب. وضعت يدها بحركة آلية على ثديها كما لو كانت تريد إخفاءه. كانت ألسنة اللهب بداخلها تلتهم بسرعة شجاعتها وتمرّدها، وشعرت فجأة بنفسها متعبة، وأحست بغتة بالوهن.

أمسكها من يدها وقادها نحو الكرسي، ثم وضع كرسيه أمامها، وجلسا بمفردهما متقابلين متقاربين وسط الصالون الفارغ.

لامس تيار الهواء البارد جسد شانطال المتصبب عرقا، فأخذت ترتجف، وسألت بصوت خافت متوسل: «ألا نستطيع الخروج من

هنا؟»

فسألها بنبرة لائمة: «لماذا لا تريدين البقاء معي، يا (آن)»؟

-(آن)؟ ردّت وقد جمّدها التقزز: «لماذا تدعوني (آن)؟»

-أليس هذا هو اسمك؟

-أنا لست (آن)!

-ولكنني كنت أعرفك دائما باسم (آن)!»

كانت ما تزال تصدر من الغرفة المجاورة بعض الطّرَقات، فاستدار ناحيتها كما لو كان يتردّد في التدخل بشأنها، واغتنمت هي لحظة الوحدة هذه لتحاول فهم ما يجري: فهي عارية، ومع ذلك يتمادون في تعريتها! في تجريدها من أناها! في تجريدها من قَدَرها! فبعد تغيير اسمها، سيتركونها بين أناس مجهولين لن تستطيع أبدا أن تشرح لهم من تكون.

لم تعد تأمل في الخروج من هنا؛ فالأبواب سُمّرَت. ينبغي أن تبدأ من البداية، والبداية هي اسمها. فهي تريد أولا، كحد أدنى لا غنى عنه، أن يدعوها الرجل الجالس قبالتها باسمها، باسمها الحقيقي. هذا أول شيء ستطلبه منه، ستشترطه عليه. لكنها ما كادت تحدد هذا

الهدف حتى تنبهت إلى أن اسمها كما لو أنه محجوز في ذهنها، فلم تعد تذكره.

أشعَرَها هذا الأمر بذعر شديد، لكنها ظلت تعي أن حياتها في خطر، ولكي تدافع عن نفسها وتصارع، عليها أن تستعيد هدوءها. ركزت ذهنها تركيزا شديدا، وبذلت قصارى جهدها لكي تتذكر: لقد مُنحت ثلاثة أسماء أثناء تعميدها، أجل ثلاثة؛ لكنها لم تستعمل منها سوى واحد. هي تذكر هذا، لكن ما هي الأسماء الثلاثة، وأيها احتفظت به؟ يا إلهي، لا شك أنها سمعت هذا الاسم آلاف المرات!

وعاودتها فكرة الرجل الذي يحبّها. لو كان موجودا هنا لناداها باسمها. لا شك أنها لو تذكرت ملامح هذا الوجه، لتمكّنت من تخيّل الفم الذي ينطق باسمها. وبدت لها هذه الطريق سالكة: الوصول إلى اسمها عبر هذا الرجل. حاولت تخيّله، فرأت مرّة أخرى، رأت خياله وهو يندفع وسط الحشد. كانت صورة شاحبة منفلتة. وأجهدت نفسها من أجل الحفاظ عليها وتعميقها وتمديدها باتجاه الماضي: من أين جاء هذا الرجل؟ كيف وُجد داخل الحشد؟ لماذا صارع؟

أرهقت نفسها لتوسيع هذه الذكرى فلاحت لها حديقة،

كبيرة فيها فيللا، داخلها ميّزت رجلا بين حشد من الناس، رجلا قصير القامة، ضعيف البنية؛ وتذكرت أنها أنجبت منه طفلا. طفل لا تعرف عنه شيئا سوى أنه مات...

«أين تهت يا (آن)؟

رفعت رأسها فرأت شخصا مسنّاً جالسا على كرسي أمامها ينظر إليها. فقالت له: «لقد مات طفلي.» كانت الذكرى واهنة، ولعل ذلك تحديدا ما جعلها تقول ذلك بصوت مرتفع، معتقدة أن ذلك سيجعل الذكرى أكثر واقعية، وأنها بهذا الصنيع ستمسك بها مثل قطعة هاربة من حياتها.

انحنى عليها وأمسك بيديها وقال لها برصانة وبصوت مفعم بالتشجيع: «يا (آن)، انسي طفلك، وانسي موتاك، وفكري في الحياة!»

ابتسم لها، ثم أومأ بيده أيماءة كبيرة كما لو كان يريد أن يشير لشيء ضخم مهيب: «الحياة! الحياة يا (آن)! الحياة!»

ملأتها هذه الابتسامة وهذه الإيماءة بالذعر، فوقفت وهي ترتعش، وقالت بصوت مرتجف: «أي حياة؟ ما الحياة في نظرك؟»

واستدعى السؤال الذي طرحته دون تفكير سؤالا آخر: ماذا لو كان الموت قد حلّ فعلاً؟ ماذا لو كانت هذه الحياة هي الموت؟

ورمت بالكرسي فمضى يتدحرج إلى أن ارتطم بالجدار. ودّت أن تصرخ، لكنها لم تجد أي كلمة. وصدرت من فمها آآآآ طويلة ومفككة.

50

«شانطال! شانطال! شانطال!»

شد جسمها الذي هزّته الصرخة بين ذراعيه.

«استيقظي! هذا ليس حقيقة!»

كانت ترتعد بين ذراعيه، وكرّر لها عدة مرات بأن الأمر ليس حقيقة. كانت تردّد بعده: «لا، ليس حقيقة، ليس حقيقة»، ثم أخذت تهدأ ببطء، ببطء شديد.

وأنا أتساءل: من الحالم؟ من حلم بهذه الحكاية؟ من تخيلها؟ هو؟ هي؟ هما معا؟ أحدهما للآخر؟ وانطلاقا من أي لحظة تحوّلت حياتهما الواقعية إلى استيهام خادع؟ متى غاص القطار تحت

المانش؟ قبل ذلك؟ في الصباح الذي أعلنت له فيه عن سفرها إلى لندن؟ أم قبل ذلك أيضا؟ في اليوم الذي التقت فيه بنادل المقهى النورماندي بمكتب خبير الخطوط؟ أم قبل ذلك؟ عندما بعث لها جان مارك بالرسالة الأولى؟ لكن، هل بعث لها بالرسائل حقّا؟ أم أنه كتبها في ذهنه فقط؟ ما اللحظة بالضبط التي استحال فيها الواقع إلى لا واقع، الواقع إلى حلم؟ أين كانت الحدود؟ أين هي الحدود؟

51

أرى رأسيهما من الجانب يضيئهما قنديل السرير: رأس جان مارك وقد وضع رقبته على وسادة، ورأس شانطال وقد انحنى فوقه على مسافة عشر سنتمترات تقريبا.

قالت: «لن أحوّل بصري عنك، سأنظر إليك دون انقطاع.»

وبعد توقف قصير: «أخاف حين يرمش جفني، أخاف من أن يندسّ، خلال هذه الثانية التي أكف فيها عن النظر، ثعبان أو جرذ أو رجُل مكانك».

حاول أن يرتفع قليلا حتى يلمسها بشفتيه.

حركت رأسها: «لا، أريد أن أنظر إليك فقط.»

ثم: «سأترك القنديل مضاء كل الليل، كل الليالي.»